الدكتور عزت السيد أحمد

آفاق التغير الاجتماعي والقيمي

الثورة العلمية والمعلوماتية والتغير القيمي



دار الفكر الفلسفي

الدّكتور عزّت السّيّد أحمد

آفاق التغير الاجتماعي والقيمي

الثورة العلمية والمعلوماتية والتغير القيمي



☆ الكتاب : **آفاق التغير الاجتماعي والقيمي.**

الثورة العلمية والمعلوماتية والتغير القيمي.

☆ المؤلف : **الدكتور عزت السيد أحمد .**

☆ عدد الصفحات: ١١٢ صفحة.

☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤.

☆ تصميم الغلاف بريشة المؤلف.

☆ الطبعة الأولى: **٢٠٠٥م.**

☆ **م/٧٩٨١٣/ تاريخ: ٢٠٠٥/٤/٢٧م.**

☆ تمت عمليات التنضيد والإخراج في دار الفكر الفلسفي للدراسات والترجمة والنشر بدمشق.

☆ تطلب كتب دار الفكر الفلسفي من المكتبات المعتمدة لتوزيع كتبها المذكورة في آخر الكتاب.

☆ النَّاشر: **دار الفكر الفلسفي.**

دمشق ـ معضميَّة الشَّام ص.ب : ٣٢.

هاتف وناسوخ ٦٢٤٤٢٤٤ ـ ١١ ـ ٠٠٩٦٣

البريد الإلكتروني dr-ezzat@mail.sy

الدكتور عزّت السيّد أحمد

آفاق التغيّر الاجتماعيّ والقيميّ

الثورة العلمية والمعلوماتية والتغير القيمي

دار الفكر الفلسفي
2005

VISTA TO
SOCIAL AND VALUE'S CHANGE

TECHNOLOGICAL REVOLUTION
AND VALUES CHANGE

BY
Ph.D. EZZAT ASSAYED AHMAD

Published By
DAR AL FEKR AL PHLSAPHY

Damascus. Moaddamet Al Sham B.O.Box 32
Telefax. 00963-11-6244244

Damascus 2005

الإهداء

إلى كلِّ نبيل

إلى كلِّ عاشق للجميل الأصيل

إلى كلِّ مدافع عن القيم الجميلة والنبيلة

أهدي هذا الكتاب

عزّت السيّد أحمد





التَّغير القيميُّ حقيقةٌ واقعة في عالم الإنسان بكلِّ مستويات انتمائه؛ بدءاً من انتمائه إلى الأسرة الصَّغيرة مروراً بالمجتمع فالأمَّة فالإنسانيَّة، من دون نسيان أصغر دوائر انتمائه؛ انتمائه إلى ذاته.

حَتَّى أواخر القرن العشرين كانت النِّسبة العظمة من التَّغيرات القيميَّة تتمُّ على نحوٍ تلقائيٍّ نتيجةً للظُّروف والمعطيات والتَّغيُّرات الأخرى المرافقة على مختلف الأصعدة والمستويات المعرفيَّة والعلميَّة وحَتَّى الطبيعيَّة. ولكن مع الرُّبع الأخير من سنوات القرن العشرين بدأت كواليس صنع القرار في العالم تتنبه إلى هذا التَّغير وَحَشَرَتْ أصابعها في إحداث هذه التَّغيرات القيميَّة من خلال الدِّراسات والأبحاث المختصَّة والمخصَّصة والبرامج الكبرى التي تُرْصَدُ لمثل هذا الغَرَض، وترصد لها المبالغ الطَّائلة الهائلة من الأموال التي لا يُعْلَنُ عن حقيقتها أبداً، وإنَّما يُعْلَنُ منها النَّزر اليسير، بل اليسير جدًّا. وتتراوح هذه المبالغ المخصَّصة تَبْعاً للظَّرف والحالة، وتقبل المناقلة تبعاً لطبيعة الظَّرف والطَّوارئ. وهي أرصدةٌ تكاد تكون مفتوحةٌ من الموازنات العامَّة للدَّولة وخاصَّةً الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

لا شكَّ في أنَّ ثَمَّةَ غاياتٍ محدَّدةً وراء وَضْعِ أيِّ برنامجٍ للتَّغيير القِيَمِيِّ، أي لإحداث التَّغيُّر القيمي. رُبَّما تكون هناك بعض الأغراض النَّبيلة في بعض

هـذه المخطَّطـات والمشـاريع... ولكـنَّ أغلـب الظَّـنِّ أنَّ أغلـب هـذه المشـاريع والمخططـات ترنـو إلى أغـراضٍ مصـلحيَّةٍ لا تخلـو مـن الأنانيَّـة؛ الشَّخصـيَّة أَو المجتمعيَّة أو الشُّعوبيَّة. وربَّما يبدو ذلك جليًّا اليوم في البرامج الأمريكيَّة الصَّريحة لأَمْرَكَةِ القيم، وأَمْرَكَةُ القيم تعني صراحةً، وصراحةً تطرح ذلك الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة اليوم، تغيير قِيَمِ الأُمَمِ والشُّعوب ومحوها إذا اقتضى الأمر من أجل إحلال القيم الأمريكيَّة محلَّها، إيماناً من (صانعي القرار) الأمريكي وحَتَّى معظم الشَّـعب الأمريكـي الـذي اقتنـع بمـا يصـنعه الإعـلام الأمريكـي، بـأنَّ القـيم الأمريكيَّـة هي القيم الصَّحيحة ووحدها هي القيم الصَّحيحة التي يجب أن تؤمن بها شعوب العالم لأنَّ هذه القيم هي الصحيحة، ولأنَّ هذه القيم هي التي تخدم شعوب العالم وتساعدها وتنقذها من تيهها وضلالها، ولأنَّ شعوب العالم تعيش حالة من الضَّياع بسبب عدم اقتدائها بالقيم الحضاريَّة والإنسانيَّة المثلى؛ قيم الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. وقد وضعت الأمريكيون لذلك خُططاً وبرامج من أجل أَمْرَكَة القيم، أي تغيير القيم. تفاوتت ما بَيْنَ البرامج السِّريَّة وبَيْنَ الإكراه واستخدام القوَّة العسكريَّة حَتَّى التي يمكن أن تقضي على دولة أَو أمَّة، وهي لا تنكر ذلك أبداً بل أوجدت نظريَّة سياسيَّة جديدة أعلنت أنَّها ستطبقها وهي نظريَّة التَّدمير الخلاق، أَو الفوضى الخلاقة، التي تعني استباحة الـدَّمار والفوضـى والخـراب مـن أجـل خلـق عمـاءٍ وعشـوائيَّةٍ محرِّضـة على ردَّة الفعل الجنونيَّة على كلِّ القيم والظُّروف السَّابقة، ولأنَّهُ العماء والفراغ هما سيِّدا الموقف ستجد القيم الأمريكيَّة سبيلها السريع إلى الحلول محلَّ القيم القديمة الـتي كانـت سـائدة... هـذا مـا يـؤمن بـه صـانعوا القـرار القـابعون وراء كـواليس السِّياسة الأمريكيَّة.

إذا كان الأمريكيون البسطاء يؤمنون بهذه النَّظريَّة فنحن لا نلومهم. ولكن إذا آمن صانعوا القرار الأمريكي بأنَّهم يريدون ذلك فعلاً من أجل مصالح الدُّول أَو الأمم التي يدمِّرونها من أجل إحلال القيم الأمريكيَّة فإنَّهم سيكونون مجانين أَو أغبياء بكلِّ تأكيد. وهم ليسوا كذلك على أيِّ حالٍ إنَّهم يعرفون ما يريدون، إنَّهم يريدون تغيير قيم الشُّعوبِ، خاصَّةً منهم الشُّعوب العربيَّة والإسلاميَّة ليضمنوا شعوباً منسجمةً مع الفكر الأمريكي والقيم الأمريكيَّة، ولا تعارض السُّلوكات الأمريكيَّة، ولا تناضل ولا تقاوم... لأنَّها لن غير أمريكا قدوةً لها ومثلاً، وهل يحارب المرء قدوته؟

عمليَّة التغيير التي تقودها الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة إذن تدور في كلِّ الأفلاك الممكنة، إنَّها تلعب بأيِّ ورق يضمن لها الرِّبح، وتتراوح هذه العمليَّة التَّغييريَّة ما بَيْنَ قيادة عمليَّة التَّغيُّر قيادةً مباشرةً وبَيْنَ قيادتها على نحوٍ غير مباشرٍ لتبدو وكأنَّها تغيُّراتٌ طبيعيَّةٌ لا تغيراتٌ قسريَّةٌ لما يلعب ذلك من دورٍ مهمٍّ في سهولة تقبُّل التَّغيرات. وعلى الرَّغْمِ من أنَّها تُوحي بأنَّها تعتمد بل وتصرُّ كثيراً على إحداث التَّغيُّر بالقسر والإكراه فإنَّها تجعل من ذلك ستاراً تُخْفِي وراءه مخططاتها ومشاريعها السِّريَّة التي تعوِّل عليها في إحداث التَّغيُّر على نحوٍ تَلقائيٍّ كي تضمن رسوخ هذا التَّغيُّر واستمراره وعدم وجود معارضةٍ أَو مقاومةٍ له، أَو ردودَ فعلٍ عليه أَو ارتكاسٍ عليه. لأنَّ فرض التَّغيُّر بالقوَّة أَو الإكراه يولد رفضاً قويًّا له.

تغيُّر القيم؛ النَّفسيَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة والجماليَّة وحَتَّى الدينيَّة... آليَّة طبيعيَّة تَلقائيَّة تحدث بسبب تغيُّر الظُّروف والمعطيات والشُّروط التي يعيش فيها الإنسان وتنتقل به من حالٍ إلى حالٍ وفق قاعدةٍ أساسيَّة مكافئة

لمبدأ انحفاظ المادَّة ومثله مبدأ انحفاظ الطَّاقة، وترى هذه القاعدة أَو المبدأ أيضاً أنَّ أيَّ تغيُّر يؤدِّي بالضَّرورة إلى تغيُّر، وسلسلة التَّغيُّر في الوجود البشريِّ غير منقطعة ولا متوقِّفة.

ولكن مع تزايد التَّطوُّر في العلوم الاجتماعيَّة على نحوٍ الخصوص والتَّطوُّر الفكريُّ على نحوٍ أشمل ظَهَرَت القدرة على إمكان إحداث هذه التَّغيرات القيميَّة بأدوات معرفيَّة وتقانيَّة وبرامج وخطط مخصَّصة، فتمَّ استغلال ذلك ممن يستطيعون استغلاله لإحداث التَّغيُّرات القيميَّة التي تحقق الغرض أَو الأغراض المرادة للجهة التي تقود عمليَّة التَّغيير.

ولكن إلى جانب التَّدخل المباشر في إحداث التَّغيرات القيميَّة، وهو إحدى أبرز التَّطوُّرات وأخطرها في حياة الإنسان، حدث في العقد الأخير من القرن على نحو الخصوص شيءٌ خطير بقدر أهميَّته وخطورته في حياة الإنسان، وهو الثَّورات الكبرى الثَّلاث في العلم؛ الثَّورة الإلكترونيَّة والثَّورة المعلوماتيَّة والثَّورة الجينيَّة.

إنَّها ثوراتٌ أكثر من مذهلةٍ رُبَّما بات من المتأخِّر معها القول: إنَّنا مقبلون على ثورةٍ علميَّةٍ لأنَّنا رُبَّما نكون مقبلين على خاتمة الثَّورات العلميَّة. فلقد تحدَّدت إلى حدٍّ كبيرٍ معالم مستقبل الإنسان على الأرض إن كان لهذا المستقبل أن يمتدَّ كثيراً هنا على هذه الأرض؛ كلُّ شيءٍ تحت السَّيطرة، كلُّ شيءٍ من أجل الإنسان، كلُّ شيءٍ في خدمة الإنسان، كلُّ شيءٍ يمكن اختزاله في رقاقة إلكترونيَّة جدِّ صغير حَتَّى رُبَّما تَصْعُبُ رؤيتها قريباً لِفَرْطِ صِغَرِ حجمها...

كُنَّا نظنُّ أنَّ الثَّورات السَّابقة في مراحلها إعجازات وإذ بها إرهاصات تافهة للإعجازات الحقيقيَّة التي حدثت في سنوات العقد الأخير من العشرين وما بعده التي لم يتم استيعاب عظمتها وقيمتها حَتَّى الآن، ولم يتم استيعاب آثارها ومخاطرها حَتَّى الآن: تبدو أشياء مفرحةً، مساعدةً، تخدم الإنسان، تختصر له الوقت والجهد والنَّقد، تحقِّق لها الرَّفاهيَّة والمزيد المزيد من الرفاهيَّة... وهي كذلك حقًّا، ولكِنَّها أعظم من ذلك بما يتم تصوُّره حَتَّى اليوم. إنَّها تُشَيِّءُ الإنسان خطوة بخطوةٍ، بل بخطًى متسارعةٍ جدًّا قد يصعب تصورُّها؛ الإنسان يفقد مهاراته وملكاته وقدراته شيئاً فشيئاً، وللأسف إنَّهُ يفرح بذلك كثيراً من دون أن يدري حقيقة ما يحدث!!

الإنسان الخارق الذي طمح **نيتشه** إلى خلقه يتحقَّق فعلاً ولكنَّهُ يتحوَّل إلى رقم، إلى شيء تتحكَّم به رقاقات إلكترونيَّة بسماكة ورقة السِّيجارة ومساحات لا تزيد عن عقلة الإصبع. والغريب العجيب المخيف أنَّهُ يظنُّ أنَّهُ هو الذي يتحكَّم بكلِّ شيءٍ من خلال هذه الرُّقاقات الإلكترونيَّة؛ ألا يستطيع أن يشغِّلَ كلَّ الأجهزة والأدوات والآلات بجهاز واحدٍ صغيرٍ بحجم الكفِّ؛ إنَّهُ هاتفٌ بالصَّوت والصُّورة وناسوخٌ (فاكس) وبريدٌ إلكترونيٌّ ومفكَّرةٌ وتلفزيونٌ وراديو وفيديو وكاميرا عاديَّة وكاميرا فيديو، وهو كذلك في الوقت ذاته سكرتيرةٌ ومدير أعمال يتصرَّف عنك في كلِّ المناسبات التي تتخيَّلها ولا تتخيلها؛ يدفع حسابات البنك، فواتير الهاتف، فواتير الكهرباء، فواتير الماء، حسابات أخرى، ويقوم بدلاً عنك من دون أن تدري أَو تتذكَّر بمعايدة النَّاس في المناسبات المختلفة، وربَّما بتقديم التَّعازي، والاطمئنان على المرضى. ومما هو موجودٌ كذلك الآن في نطاق ضيِّق أن يقوم هذا الجهاز الصَّغير بتكفُّل عمليَّة

إيقاظك وإعداد قهوتك وغسيل يديك ووجهك وتقديم المنشفة وفتح النَّوافذ وإغلاقها والتَّحكم بالباب وفتحه في أوقات محدَّدة وإغلاقه في أوقات محددة، وتشغيل سيارتك وتجهيزها قبل أن تغادر البيت... وربَّما هو الذي يقرِّر لك من تستقبل من الضيوف أَو لا تستقبل، والأوقات التي يتمُّ فيها ذلك... وتخيَّل بعد ذلك مثلاً أنَّك تريد أن تغيِّر برنامجك في شيء ما وتعذَّر عليك ذلك لسببٍ أَو لآخر!!! بل تخيَّل ماذا ما يمكن أن تفعله فينا البرامج الحيويَّة التي صارت قيِّد التَّطبيق منذ سنين غير قليلة!!!

يظنُّ الكثيرون خطأً أن ذلك كلَّه في خدمة الإنسان والإنسانيَّة فالتَّطوُّر التَّقانيُّ كلُّه ينصبُّ في خدمته؛ الثَّورة الجينيَّة ستطيل عمر الإنسان كثيراً، وكثيراً جدًّا، وربَّما يحسب الكثيرون أنَّ الإنسان بعد فترةٍ لن يموت!! ألم تُكْتَشَفُ لخريطة الوراثية التي أتاحت معرفة متى سيمرض الإنسان وبأي مرض سيمرض، وأيُّ جين هو الذي يتحكَّم بذلك، وكيف يمكن تدراك هذا الخطر قبل سنين؟!؟! ألم يأت الاستنساخ ليصنع قطع غيارٍ وتبديلٍ للأعضاء أَو الأجزاء التَّالفة أَو التي يمكن أن تتلف من الإنسان؟؟ إذن كيف سيموت؟

لم يدِّع القدرة على ذلك أحدٌ حَتَّى الآن. ولكنَّ أحاديث من هذا القبيل راحت تدور في أروقة المخابر العلميَّة وتداعب مُخيِّلات العلماء منذ الوقوف على أبرز معالم الخريطة الجينيَّة. ولم يخف بعض العلماء هذه التَّطلعات.

أما الاختراعات الإلكترونيَّة المذهلة التي أثلجت القلوب وسرقت العقول وشغلت الناس بمحاسنها عن مخاطرها فإنَّها تأكل العقل خليَّةً تلو خليَّةٍ وسيتفاجئ الإنسان بعد حين غير قريب أنَّهُ بلا مَلَكَات ولا قدرات... لا

تعجوا إن وجد الإنسان نفسه فجأة إنساناً آليًّا يبرمج كما يبرمج الحاسوب؛ لا يحتاج إلى تعلُّم ولا إلى دراسة... هناك برمجيات جاهزة (ستكون جاهزة) يخضع لها فيجد نفسه عَالِماً في العلم الذي يريد، ويتكلَّم اللغة التي يريد من دون دخولٍ إلى قاعة دراسة أَو خضوعٍ لدورةٍ تدريبيَّة أَو أستاذٍ خصوصيٍّ؛ شريحةٌ إلكترونيَّةٌ تُلْصَقُ على جبينه أَو على مكان آخر من رأسه أَو رُبَّما غير ذلك، أو يشحن دماغه بها فيمتلك هذه المهارات...

الفكرة ليست عجيبةً ولا غريبةً ولا هي من باب الخيال العملي أَو الأدبي، إنَّها موضوعٌ يشتغل عليه بعض الباحثين وطلاب الدراسات العليا اليوم، وقد قطعوا أشواطاً مهمةً على هذا الطَّريق، ونقطةٌ واحدةٌ هي التي تعطِّل عملهم حَتَّى الآن بل الأصح القول نقطة واحدة هي التي تقف دون تمام العمل لأنَّها لم تكتشف بعد ليس أكثر، وحَتَّى الآن هم منشغلون بالعمل على حلها؛ إنَّها فقط كيفية وصل الشَّريحة الإلكترونيَّة بالدِّماغ البشري.

سَتقولون هذا مستحيلٌ. نَعَمْ، إنَّهُ يشبه المستحيل، ولكن ما رأيكم في أَنَّهُم قَطَعُوا نصف الشَّوط تماماً، لقد شَحَنَوا مُخَّ الدَّجاج بالمعلومات ونَجَحُوا، وَقَدَاسَةُ الإنسان (التي لا يبالي العلماء بها) هي التي تُحْرِجُهم في التَّجريب حَتَّى الآن. بل أغلب الظَّنِّ أَنَّهُم يُجَرِّبُون، ولكنَّ النَّتائج حَتَّى الآن في إطار السِّرِّيَّة، وكذلك التَّجارب التي لا نشكُّ في أنَّها قائمةٌ على قَدَمٍ وساقٍ.

وفي ظلِّ ذلك وقبله كانت الخدمات التي حقَّقها هذا التَّطوُّر للإنسان تأكل قِيَمَهُ أيضاً؛ الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة والجماليَّة والنفسيَّة والدِّينيَّة... إنَّهُ يتجرَّد من هذه القِيَمِ رويداً رويداً ليتحوَّل رُبَّما إلى غرائز فقط، ورُبَّما إلى آلة فقط خاليةٍ حَتَّى من الغرائز!!

الجوع؟ وما هو الجوع؟ حَبَّةٌ بحجم حبَّة العدس هي غذاء يومٍ كاملٍ أَو رُبَّما عدَّة أيَّام.

الأمومة؟ وما الأمومة؟ لم يعد لها من داعٍ. ولماذا تتألَّم الآنسات الرقيقات بالحمل والطَّلْقِ والولادة؟؟ ستكون هناك حواضن تتكفَّل بالجنين منذ التَّلقيح، ورُبَّما لا يكون من حاجةٍ إلى التَّلقيح، فالرَّجل يمكنُه استنساخ ذاته، والمرأة يمكنه استنساخ ذاتها...

يبدو في كلامنا هذا شيءٌ من المبالغة، أَو الكثير منها... ولكن أليس هذا هو الواقع في سيرورته؟ أليس هذا من صلب ما يحدث؟ هل نأتي بشيءٍ غير موجودٍ فعلاً في الواقع الطبيعي لا التَّخيُّلي؟

هذه هي الموضوعات التي عالجناها في هذا الكتاب تحت إطار أَو ميدان التَّغير الاجتماعي والقيمي لمعرفة كيفيَّة حدوث التَّغيُّر والتمييز بَيْنَ التَّغيُّر والتَّغيير، ومن ثُمَّ تبيان أثر التَّطور التَّقاني في التَّغيُّر القيمي.

نحن أمام ثلاثة نماذج من التَّغيُّر الاجتماعي والقيمي هي التي تحدَّثنا عنها في هذا الكتاب:

. التَّغيُّر التَّلقائي الذي هو سنَّةُ الحياة الإنسانيَّة كما هو في الوقت ذاته ضرورة يفرضها التَّغيُّر الذي يمرُّ الإنسان بغض النَّظر عما إذا كان هذا التغير حسناً أم قبيحاً، جيِّداً أم سيئاً، مقبولاً أم مرفوضاً.

. التَّغيير المخطَّط والمبرمج للقيم بمختلف أنواعها؛ الاجتماعية والأخلاقية والجماليَّة والنفسيَّة والدِّينيَّة... والآليات التي يتمُّ من خلالها وبها هذا التَّغيير. مع التَّمييز بَيْنَ التَّغيُّر والتَّغيير وآليَّات كلٍّ منهما.

ـ التَّغيُّر المتسارع بسبب الثَّورة التَّقانيَّة الكبرى على مختلف مستوياتها الذي يجتاح القيم الإنسانيَّة بمختلف أنواعها. وقد آثرنا أن نسميه نمطاً ثالثاً من أنماط التَّغيُّر لأنَّهُ في الحقيقة نمطٌ مغايرٌ للنَّوعين السَّابقين؛ إنَّهُ يجمعهما معاً، بل يَجمع فاعليتيهما ويضيف إليهما فاعليَّة الثَّورة المتفجِّرة للطاقات العلميَّة.

هذه الأنماط الثَّلاثة من التَّغيُّر القيمي هي ما تناولناه في كتابنا هذا من خلال ثلاثة فصول هي التَّغيُّر الاجتماعي والقيمي وآليَّات التَّغيير، والثَّورة التَّقانيَّة والتَّغيُّر القيمي، وقناة الحرَّة وأمركة القيم أنموذجاً للتَّغيير القيمي. ولكِنَّها ليست كلُّ ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع، فما يمكن أن يقال أكثر بكثيرٍ من ذلك بكلِّ تأكيد. حسبنا أنَّنا حاولنا تَلَمُّس المعالم الأساسيَّة والنِّقاط الاستناديَّة التي هي أساسٌ لما يمكنُ أن يقال في هذا الموضوع الكبير والخطير.

ثَمَّةَ الكثير جدًّا من النِّقاط والمسائل التي تستحقُّ أن تثار وتناقش في هذا الإطار. عرَّجنا على محاورها وبعض معالمها في هذه المقدِّمة وعلة بعضها الآخر في فصول الكتاب، ولكنَّنا لم ندخل في تفصيل الاحتمالات والممكنات التي يمكن أن تنجم عن هذه التَّطورات التَّقانيَّة، كان حسنا الإمساك بالمبادئ والبنى الأساسيَّة لهذه العمليَّة حَتَّى يسهل التَّعامل مع هذه الظَّاهرة واستقراء ما يمكن أن تقود إليه من نتائج وآثار.

مرَّةً أخرى أجد من الضَّروري أن أشير إلى أنَّهُ ليس ثَمَّةَ أيَّ مبالغةٍ في تصوير وتصوُّر آفاق التَّغير القيمي والمخاطر التي ينطوي عليها. إنَّها حقائق باتت بحكم المؤَكَّدة التي لا مفرَّ منها.

كثيراً ما تخيل السَّابقون استحالة بعض الإنجازات والتَّغيُّرات ولكنَّها صارت بسرعة قياسيَّةٍ حقائق واقعةً لا جدال فيها ولا سجال. ولذلك لا يجوز أن نقع فيما وقع فيه السابقون من قصور التصور والتخيل، وخاصَّة أننا في خضم الحدث والوقائع التي نعيشها مباشرة لا مناقلة.

إنَّها دعوةٌ بل قرعٌ لأجراس الإنذار من أجل اتِّخاذ التَّدابير والإجراءات قبل فوات الأوان. ولكِنَّها دعوةٌ للعلماء والمفكرين والباحثين وأصحاب القرار... وربَّما هؤلاء فقط هم الذين يستطيعون فعل شيء.

الدُّكتور عِزَّت السَّيد أَحمَد

نيسان ٢٠٠٤م



الفصل الأول

التغير القيمي وآليات التغيير

التَّغيُّر الاجتماعي ليس مرتبطاً بتغير القيم الاجتماعية وحسب وإنَّما هو مرتبط بالعناصر والبنى والنُّظم والنّواظم والرَّوابط كلها ....

نحن أمام اصطلاحين هما التَّغيُّر والتغيير. وفرق كبيرٌ بَيْنَهما، وإن كانا مرتهنين لأصلٍ لغويٍّ واحدٍ. ولكنَّ هذا الاختلاف بَيْنَ معنيي الاصطلاحيين هو اختلافٌ في الجهة والتَّعلُّق والآليَّة وليس في المادة لأنَّ المادَّة واحدة.

عندما قال **هيرقليطس**: «لا يمكن للإنسان أن ينزل في النَّهر الواحد مرَّتين»[1]، فإنَّهُ لم يكن مخترعاً أمراً جديداً بِقَدْرِ ما كان مُلْتَقِطاً مشهداً مسلَّماً به من سيرة الطَّبيعةِ والحياة، أي مكتشفاً أمراً موجوداً. ولكن يصعب القول بأنَّهُ اكتشف ما لم يُسْبَقْ إليه، لأنَّ التَّغيُّر في مختلف مستويات الحياة والطَّبيعة ومناحيهما أمرٌ معروفٌ للعامَّة من النَّاس، ولذلك ليس كشفاً خارقاً أن يقول واحدٌ مثل **صموئيل كيوبنج**: «التَّغيُّر في حدِّ ذاته ظاهرةٌ طبيعيَّةٌ تَخْضَعُ لها ظواهر الكون وشؤون الحياة بالإجمال، وهو من أكثر مظاهر الحياة الاجتماعيَّة وضوحاً، فالتَّغيُّر يشمل البيئتين الخارجيَّة والداخليَّة على السَّواء»[2]. فهو لا يعدو كونه وصفاً لظاهرٍ يدركه أقلُّ النَّاس ثقافةً وربَّما وعياً. وخاصَّة أنَّ هذه الظَّاهرة قديمةٌ قِدَمَ الإنسان، أو كما قال **إلبرت مور**، من

---

(١) ـ هيرقليطس: **جدل الحب والحرب** ـ ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٨٠م ـ شذرة ٩١.

(٢) ـ فادية عمر الجولاني: **التَّغيُّر الاجتماعي؛ مدخل النظرية الوظيفيَّة لتحليل التَّغيُّر** ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية ـ ١٩٩٣م ـ ص١١.

دون أن يَحِقَّ له ادِّعاء اكتشاف أيِّ جديدٍ أيضاً: «إنَّ ظاهرة التَّغيُّر الاجتماعي ليست ظاهرة حديثة»[٣].

ولكنَّ أهميَّة **هيرقليطس** على أيِّ حال هي أَنَّهُ استطاع أن يصوغ من حالة التَّغيُّر هذه فلسفة أَو رؤيةً فلسفيَّةً ستغدو مذهباً أَو مدرسة يسير على هديها المفكرون.

بعد أكثر من ألفي سنة جاء من فخر بالانتساب إِلَى **هيرقليطس** وفخر بتجاوزه، وهو **كارل ماركس** الذي أعاد الكَرَّة ذاتها بالانتقال من المعرفة الشَّائعة المسلَّم بها في الممارسة اليوميَّة، إِلَى النَّظريَّة الفلسفيَّة للفكرة ذاتها بعد إعادة صوغها من جديدٍ في قالبٍ جديدٍ عندما قال: «ليست مهمَّة الفلسفة تفسيرَ العالم وإنَّما تغييره».

هذه المهمة الَّتي علَّقها **ماركس** على كاهل الفلسفة ليست جديدةً أيضاً ولا هي اكتشافٌ خارقٌ للمألوف لأنَّها أيضاً مهمَّة أدركها الفلاسفة وعاشوها ممارسةً فعليَّةً منذ قديم الزَّمان، وبالتَّأكيد لن نعدم من عَبَّر عنها بصورة أَو أُخْرَى، ولكنَّ فضل **كارل ماركس** كان شبيهاً بفضل معلِّمه **هيرقليطس** وهو صوغ هذه الفكرة في قالب نظريَّة فلسفيَّة ستلعب أيضاً دوراً بارزاً في تاريخ الفكر البشري.

نحن إذن أمام مفهومين أَو اصطلاحين وهما التَّغيُّر والتغيير. وثَمَّةَ فرقٌ كبيرٌ وواضحٌ بَيْنَ البعدين الدَّلاليين لكلٍّ من التَّغيُّر والتَّغيير، وإن كانا مرتهنين لأصلٍ لغويٍّ واحدٍ.

---

(٣) . م. س. ص ١٢.

ولكنَّ هذا الاختلاف بَيْنَ معنيي المفهومين أَو الاصطلاحيين اختلافٌ في الجهة والتَّعلُّق والآليَّة وليس في المادَّة لأنَّ المادَّة واحدةٌ وهي الأصل اللغوي الواحد. ولذلك فإنَّ أول ما سنقف عنده هو التَّمييز بَيْنَ هذين الاصطلاحين.

مفهوما التَّغيُّر والتغيير

جرت العادة على خصِّ اصطلاح التَّغيُّر بمضافٍ واحدٍ محدَّدٍ هو المجتمع، فكان الاصطلاح المركب النَّاشئ؛ التَّغيُّر الاجتماعي هو الاصطلاح الأكثر ذيوعاً واستخداماً على حساب أنماط التَّغيُّر الأُخْرى في مختلف المجالات والميادين؛ القيميَّة والطَّبيعيَّة.

التَّغيُّرات الَّتي تطرأ على الطَّبيعة بمختلف مستوياتها وميادينها أمرٌ يخضع للعلوم الطَّبيعية وقياساتها وقوانينها، وهذه التَّغيُّرات وإن كانت خاضعةً في المبدأ لمفهوم التَّغيُّر العام فإنَّها تدور في فلكٍ واحدٍ ليس منفصلاً بالمطلق عمَّا يحدث في عالم القِيَمِ وما اتَّصل به، ولكنَّهُ مستقلٌّ عنه بقوانينه وخصوصيَّاته ومادَّته. ولذلك نترك هذا الأمر لأصحابه لنُعْنَى فَقَطْ بالتَّغيُّر في عالم الإنسان الذي تجوز تسميته بالتَّغيُّر القيمي. ونعني بالتَّغيُّر القيميِّ التَّغيُّرَ الذي يطال القيم الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة والتَّربويَّة والأخلاقيَّة والنَّفسيَّة والجماليَّة والدِّينيَّة... وهي كلُّها على صلةٍ وثيقةٍ مع بعضها بعضاً، بل وثيقةٍ جدًّا إِلَى الحدِّ الذي يجعل التَّغيُّر في أيٍّ منها مرتهناً ارتهاناً مباشراً بالتَّغيُّر في ميادين القيمة الأُخْرى كلِّها بحيث يكون نتيجةً أَو مقدِّمةً للتَّغيُّرات في الميادين الأُخْرى، ولَعَلَّ التَّغيُّر يسير في مختلف الميادين القِيَمِيَّة سيراً متوازياً.

ولكن على الرَّغْمِ من ذلك انفرد المجتمع بحوامله باصطلاح التَّغيُّر فكان ما سمي بالتَّغيُّر الاجتماعي، أما الميادين الأُخْرى فسمي التَّغيُّر أَو التَّغيير فيها بأسماء أُخْرَى مثل: الإرشاد النَّفسيّ، التَّوجيه التَّربوي... وربَّما يكون السَّبب في حصر التَّغيُّر بالمجتمع وحوامله هو أنَّ التَّغيُّر الاجتماعي شبه شاملٍ للتَّغيُّرات الطَّارئة في مختلف الميادين الأُخْرى، أَو بلفظٍ آخر: إنَّ المجتمع بحوامله المختلفة هو المرآة الَّتي تنعكس عليها أَو فيها كلُّ التَّغيُّرات الَّتي تطال الميادين الأُخْرى: الأخلاقيَّة، النَّفسيَّة، السِّياسيَّة، الاقتصاديَّة... وغيرها. أي إنَّ عدم استخدام لفظ التَّغيُّر إلاَّ في الإطار الاجتماعي ليس ضربةَ حظٍّ ولا مصادفةً سعيدةً وإنَّما هو قائمٌ على أسسٍ لا بأس من القول إنَّها علميَّةٍ، ذلك أنَّ التَّغيُّر في أيٍّ من الميادين الأُخْرى له طبيعته وخصوصيَّته وآليَّته الَّتي أوجبت له تسميةً أُخْرَى؛ فالتَّغيُّرات النَّفسيَّة غالباً ما تكون حالات مَرَضَيَّةً لها تسمياتها، والتَّغيُّرات الأخلاقيَّة تُسَمَّى نشوزاً أَو فساداً أَو صلاحاً أَو غير ذلك، والتَّغيُّرات الاقتصاديَّة تُسَمَّى تطوُّراً أَو تقدُّماً أَو تخلُّفاً أَو غير ذلك... وهلمَّ جرًّا.

وكذلك شأن التَّغيير أيضاً فهو غالباً ما يُستخدَم في المجال الاجتماعي دون غيره من المجالات، وربَّما للأغراض ذاتها، إضافة إِلَى أنَّ التَّغيير من حالٍ إِلَى حالٍ لا يعني بالضَّرورة أنَّ الحال المغَيَّر أسوأ من المغيَّر إليه، ولا أنَّ المغيَّر إليه أفضل من المغيَّر. فيما التَّغيير في الميادين الأُخْرى يفترض فيه دائماً السَّعي إِلَى الانتقال إِلَى حالٍ أفضل، أَو تصويب خللٍ، ولذلك حَمَلَ التَّغيير في المجالات الأُخْرى أسماء واضحة الدَّلالة والقصد باتِّجاه الأفضل فكان؛ التَّوجيه التَّربوي، الإرشاد النَّفسيُّ، التَّحديث الاقتصادي، التَّوعية الجماليَّة... وهلمَّ جرًّا.

أولاً: مفهوم التَّغيُّر الاجتماعي

من الثَّابت أنَّ دلالة الاصطلاح لا تبتعد عن الدَّلالة اللغوية له أَو لأصله، ولذلك لا غَرْوَ في أن ننطلق من المعجم اللغوي في أيِّ لغة، من لسان العرب معجمنا اللغوي الذي جاء فيه: «تَغَيَّرَ الشَّيءُ عن حاله: تحوَّل. وغيَّرَ الشيءَ: حوَّله وبدَّله، وكأَنَّهُ جعله غير ما كان عليه. وغيَّر الأمر: حوَّله. وتغايرت الأشياء: اختلفت»[٤]. في هذا التَّعريف اللغوي الذي قدَّمه **ابن منظور** في لسان العرب اختصار وتكثيف لدَّلالة الاصطلاح، وخاصَّة أنَّ دلالة الاصطلاح لا تختلف عن أصل الدَّلالة اللغويَّة له، فقوله: «وكأَنَّهُ جَعَلَهُ على غير ما كان عليه» إظهارٌ لحقيقة أنَّ التَّغيُّر والتَّغيير ليسا تبديلاً بالمطلق وإنَّما نقلةٌ في الحال، والحال متغيِّرٌ أصلاً. وقوله: «غَيَّرَ الأمر عليه: حَوَّلَهُ» اختصار لمفهومِ التَّغيير الذي تدخل فيه الإرادة. فإذا أضفنا الجزء الثَّاني من الاصطلاح وهو الاجتماعي إِلَى مفردة التَّغيُّر «أصبحت الإشارة هنا إِلَى تحوُّلاتٍ أَو ذبذباتٍ متَّصلةٍ بالمجتمع؛ عناصره، بناه، نُظُمِه، عملياته، العلاقات بَيْنَ عناصره... وبذلك يكون للتَّغيُّر الاجتماعيِّ صلةً وَثِيْقَةٍ بالتَّحوُّلات العديدة الَّتي تحدث في مختلف أنماط الحياة الإنسانيَّة»[٥].

أي إنَّ التَّغيُّر الاجتماعيَّ ليس مرتبطاً بتغيُّرِ القِيَمِ الاجتماعيَّة وحسب وإنَّما هو مرتبطٌ بالعناصر والبُنَى والنُّظم والنَّواظم والرَّوابط... وبمثل هذا المعنى رأى **جيزنبرج** أنَّ التَّغيُّر الاجتماعيَّ «هو التَّغيُّر الذي يحدث في طبيعة البناء

---

(٤) ـ ابن منظور: **لسان العرب** ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ١٩٩٣م ـ مادة: غير.

(٥) ـ عبد العزيز الخطيب: **اتجاهات تغير البنية الاجتماعية في مدينة معضية الشام** ـ رسالة دكتوراه في علم الاجتماع نوقشت في جامعة دمشق عام ٢٠٠١م ـ ص٥٢.

الاجتماعيِّ مثل زيادة أَو تناقص حجم المجتمع، أَو في النُّظم والأجهزة الاجتماعيَّة، أَو التَّغيُّرات اللغويَّة، وكذلك يشمل الاصطلاح التَّغيُّرات في المعتقدات والمواقف»[٦].

لَقَد انتبه **إلبرت مور** كما أشرنا إِلَى «أنَّ ظاهرة التَّغيُّر الاجتماعيِّ ليست ظاهرةً حديثةً»[٧]. ولكنَّهُ، في توضيحه لهذه الفكرة يعطي هذا التَّغيُّر الاجتماعيَّ بُعداً أكثر مطلقيَّة مما يستحقُّ إذ يجعله كلَّ تغيُّرٍ أَو تطوُّرٍ في الخبرة البشريَّة، بقوله: «إذ إنَّ هناك درجاتٍ وأنواعَ من التَّغيُّر حَدَثَتْ في الخبرة الإنسانيَّة»[٨]، ثُمَّ يعود مباشرة أيضاً ليضيِّقَ عليه بجعله الوَثْبَات الكبرى في تاريخ المجتمعات، بقوله: «لكنَّ الاهتمام بالتَّغيُّر وسرعته يرجع إِلَى السُّرعة الَّتي حدثت فيها في تلك المجتمعات»[٩].

أَمَّا **لندبرج** فقد انتبه إِلَى أنَّ كون «التَّغيُّر الاجتماعيِّ ظاهرةً تحدث في كلِّ زمانٍ ومكانٍ»[١٠]، ليس كشفاً خارقاً، ولا يستحقُّ الوقوف عنده كثيراً، ولذلك ذَهَب إِلَى أنَّ «التَّغيُّر الاجتماعيَّ هو الاختلافات الَّتي تطرأ على ظاهرةٍ اجتماعيَّةٍ خلال فترةٍ زمنيَّةٍ معيَّنةٍ، والَّتي يمكن ملاحظتها وتقديرها، وهي تحدث بفعل عوامل خارجيَّةٍ وداخليَّةٍ...»[١١]. وهذا فهمٌ قريبٌ جدًّا من حقيقة التَّغيُّر الاجتماعي، ويُعْطِي عنه تصوراً واضحاً قَدْ يكون كافياً.

---

(٦) ـ فادية عمر الجولاني: **التَّغيُّر الاجتماعي**. ص١٢.

(٧) ـ م. س. ذاته.

(٨) ـ م. س. ذاته.

(٩) ـ م. س. ذاته.

(١٠) ـ م. س. ذاته.

(١١) ـ م. س. ذاته.

ومن التَّعريفات الَّتي تستحقُّ الوقوف عندها تعريف **جونسون** الذي «رأى أنَّ التَّغيُّر الاجتماعي ما هو إلاَّ تغيُّرٌ في بنية النِّظام الاجتماعيِّ من حالةٍ كان فيها ثابتاً نسبيًّا. كما أنَّ هذه التَّغيُّرات البنائيَّة ناتجةٌ بالأساس عن تغيُّرات وظيفيَّةٍ في البنية الاجتماعيَّة، وصولاً إِلَى بناءٍ أكثر كفاءةً، وأكثر قدرةً على أداء الإنجازات...»(١٢).

إنَّ ما يستحقُّ المناقشة في هذا التَّعريف هو كونه الأقرب إِلَى حقيقة التَّغيُّر الاجتماعيِّ، فالتَّغيُّر الاجتماعيُّ بالمطلق هو انتقال البينة الاجتماعيَّة من حالٍ إِلَى حالٍ، غالباً ما تكون الحالُ الَّتي انتقل منها تتمتَّع بنوعٍ من الاستقرار والثَّبات النِّسبيِّ بغضِّ عن النَّظر عن طبيعة هذا الاستقرار من حيث التَّخلُّف أَو التَّحضُّر، الخطأ أَو الصَّواب. لأنَّ البنية الاجتماعيَّة تَمِيْلُ بطبيعتها إِلَى الاستقرار، ولذلك تسعى دائماً إليه، والتَّغيُّر الاجتماعيُّ هو الآليَّة الَّتي يسير بها المجتمع نحو استقراره، ولذلك ما إن يتعرَّض المجتمع لأيِّ طارئ؛ داخليٍّ أَو خارجيٍّ، حَتَّى تتسارع وتائر هذه الآلية في عملها لخلق هذا الاستقرار، فيكون التَّغيُّر تجاوباً أَو انعكاساً أَو ردَّ فعلٍ للظُّروف الجديدة الَّتي تلمُّ بالمجتمع. وبهذا المعنى يكون التَّغيُّر سيراً بالمجتمع نحو الأداء المكافئ لهذه الظُّروف أَو المعطيات الجديدة الطَّارئة عليه، ولذلك ليس من الضَّروري أن يكون التَّغيُّر تطوُّراً كما أراد لكثيرون، وإنَّما قَدْ يكون التَّغيُّر انحداراً بالمجتمع نحو الأسوأ، نحو التَّخلُّف، فالضُّغوط الَّتي تلمُّ بالمجتمع تجعله ينكفئ على ذاته ويخلق آليَّاتٍ جديدةً تواكب هذه الضُّغوط الَّتي قَدْ تزيد فاعليَّته وقد تحبطها، وهذا مرتبطٌ بطبيعة

(١٢) . عدلي أبو طاحون: **في التَّغيُّر الاجتماعي** . المكتب الجامعي الحديث . الإسكندرية . ١٩٩٧م . ص٣.

الضُّغوط وموضع المجتمع على مساره الحضاري، ومكانته بَيْنَ المجتمعات الأُخْرى...

ولذلك فإنَّ من الجدير التَّنويه به هنا هو «أنَّ مفهوم التَّغيُّر الاجتماعيِّ لا يقتصر فَقَطْ على عناصر التَّصرُّف الاجتماعيِّ، أَو تبدُّل الخصائص الثَّقافيَّة، إنَّما التَّغيُّر الذي يجب التَّركيز عليه ودراسته دراسةً علميَّةً موضوعيَّةً هو ذلك التَّحوُّل الذي يطرأ على الكلِّ المركَّبِ الذي يُطْلَقُ عليه البناء الاجتماعي»[١٣].

التَّغيُّر الاجتماعيُّ إذن آليَّةٌ من آليَّات دفاع المجتمع عنه ذاته تفرض عليه صَوْغَ بنيته بما يتوافق مع الظُّروف والمعطيات الَّتي يعيشها وتمرُّ به؛ بيئيًّا، تاريخيًّا، مرحليًّا، اقتصاديًّا، سياسيًّا... ولذلك نجد المجتمع سرعان ما يخلق ظروف تطوُّره إذا كانت المعطيات المحيطة مناسبةً لذلك، وسرعان ما يخلق آليَّات تقوقعه وارتكاسه إذا فَرَضَتْ عليه الظُّروف ذلك. وهاتان النُّقلتان تحتاجان إِلَى وقتٍ طويلٍ حَتَّى تصلا إِلَى مرحلة الاستقرار الذي هو الغاية الرَّئيسيَّة الدَّائمة للمجتمع. وفي ظلِّ كلٍّ منهما يمرُّ المجتمع مرحليًّا بانعطافاتٍ وتغيُّراتٍ كثيرةٍ ترتبط بطبيعة المرحلة ومقتضياتها، فنجد لذلك هَبَّاتٍ تطوُّريَّة لافتةً غير متوقَّعَةٍ في مراحلَ معيَّنةٍ، وكذلك قَدْ نجد ارتكاساتٍ عنيفةً غير متوقَّعةٍ في ظلِّ اندفاعاتٍ نهضويَّةٍ، وقد نجد كذلك وثباتٍ تغيُّريَّةً ملفتةً في مجالٍ دون آخر بما يشبه الطَّفرات الَّتي غالباً لا تستمرُّ إذا لم تتواكب مع المجالات الأُخْرى وتتكامل معها.

---

(١٣) . صبحي محمد قنوص: **علم دراسة المجتمع** . الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان . مصراتة . ١٩٨٩م . ١٤٧.

إنَّ هذه الآليَّة الدِّفاعيَّة للمجتمع هي آليَّةٌ لا شعوريَّةٌ جمعيَّةٌ يقوم بها أفراد المجتمع بوصفهم كلاًّ من وعيٍ أَو إرادةٍ، وتشبه البنية الاجتماعيَّة في ذلك البنيَّة النَّفسيَّة للفرد تماماً في حيلها الدِّفاعيَّة الَّتي تمارسها على نحوٍ لا شعوريٍّ للدِّفاع ذاتها من خلال مجموعةٍ كبيرةٍ من الممارسات الَّتي يتوافق كلٌّ منها مع الحالة الَّتي يتعرَّضُ لها الفرد؛ كالإسقاط والارتكاس والنُّكوص والمرض... وغير ذلك مما يطلق عليه في علم النَّفس الحيل الدفاعيَّة[١٤].

ثانياً: مفهوم التغيير الاجتماعي

بعد تبيان مفهوم التَّغيُّر صار من اليسير الحديثُ عن مفهوم التَّغيير، فالتَّغيير لا يبتعد عن التَّغيُّر في شيءٍ إلا في مستوى الدَّلالة للأصل ذاته. فإذا كان التَّغيُّر آليَّة لا شعوريَّة جمعيَّة يقوم بها المجتمع لحفظ ذاته وحمايتها مما يتعرَّض له من تهديدٍ أَو خطرٍ يمسُّ بنيته الاجتماعيَّة، أَو الأخلاقيَّة، أَو القيميَّة... أَو غير ذلك، كلِّها أَو بعضها، فإنَّ التَّغيير هو الفاعليَّة الرَّامية إِلَى إحداث تغيُّر محدَّد في البنية الاجتماعيَّة أَو جانب منها أَو أكثر.

بهذا المعنى التَّغيير آليَّةٌ شعوريَّةٌ، إراديَّة يقف وراءها فاعلٌ ما؛ داخليٌّ أَو خارجيٌّ، يريد أن يغيِّر في المجتمع أمراً ما؛ سلوكاً، عادةً، قيمةً، نمطاً... أو غير ذلك. وهو يريد إحداث هذا التَّغيير لأمرٍ يريده هو، ولذلك ليس من الضَّروري أن يكون التَّغيير متَّجهاً نحو الإيجاب دائماً أَو نحو الصَّواب، فقد تكون إرادة الْمُغَيِّر إحداث خللٍ ما، أَو تكريس سلوكٍ أَو معتقدٍ أَو قيمةٍ

---

(١٤) . ثَمَّة من يرفض سيرفض عد التَّغيُّر الاجتماعي آلية لا شعورية جمعية على النحو الذي أشرنا إليه، ولكن هؤلاء عندما طرحوا البديل طرحوا بديلاً لا علاقة له بالتَّغيُّر، لأنَّ البديل كان تخطيطاً واعياً، والتخطيط الواعي تغيير وليس تغيراً.

تخدم مصالحه وحسب بغضِّ النَّظر عمَّا يمكن أن تقدِّمه للمجتمع من فائدةٍ أَو خيرٍ على الأَمْدِية القريبة والبعيدة.

يتَّفق التَّغيُّر والتَّغيير في أنَّ كليهما يتضمَّن إمكانيَّة حدوث النَّتائج الإيجابيَّة والسَّلبيَّة، وإذا كان الفاعل في التَّغيُّر هو الممارسة الآليَّة اللا شعوريَّة الجمعيَّة للمجتمع فإنَّ الفاعل في التَّغيير محدَّدٌ مشخَّصٌ يقوم بفعله التَّغييري عن وعيٍ وإرادةٍ. وهذا الفاعل في التَّغيير، كما أشرنا قَدْ يكون داخليًّا وقد يكون خارجيًّا، ويستويان في إمكانيَّة إحداث الأثر الجيِّد والسَّيئ، فليس من الضَّروريِّ أن يكون الفاعل الدَّاخلي قاصداً إحداث الأثرِ الإيجابيِّ، ولكن يرجَّح الظَّنُّ دائماً أنَّ الفاعل الخارجيَّ لا يتطلَّع أبداً إلى إحداث أثرٍ إيجابيٍّ وإنَّما السَّلبيِّ أَو الذي يخدم مصالح بعينها هي غايته التي يتطلَّع إليها.

الفاعل في التَّغيير قَدْ يكون فرداً أو مؤسَّسةً أَو جماعةً. وأيًّا كان الأمر فإنَّ الفرد وحده لا يمكن، إلا في استثناءاتٍ نادرةٍ، أن ينفِّذَ مخطَّطه التَّغييري إلا من خلال جماعةٍ؛ مؤسَّسةٍ، جمعيَّةٍ، منتدًى، وسيلةٍ إعلاميَّةٍ... وغير ذلك.

أما هويَّة الفاعل، أي شخصنته في الواقع، فلم تعد مشكلةً كبيرةً، لأنَّهُ بات من الواضح أَنَّهُ يصعب إن لم يتعذَّر على أيِّ فردٍ أن يفكِّر في إحداث التَّغيير في المجتمع إلا إذا كان فرداً نوعيًّا مختلفاً عن بقيَّة الأفراد في إمكاناته وقدراته ومخطَّطاته، وبذلك فإنَّ السِّياسي فرداً أَو حزباً أَو حركةً، والاقتصادي فرداً أَو مؤسَّسةً أَو تيَّاراً، وربَّما الدِّيني... هم الذين يمكن أن يقوموا بفعل التَّغيير.

هذا هو التَّغيير بالمطلق، أمَّا عندما تتحدَّد غاية التَّغيير وهدفه فإنَّهُ ينزل من مستوى المطلقيَّة إِلَى التَّشخصن فيمكن أن يحمل الاسم الخاص به في

حاضنة التَّغيير، فإذا كان إيجابيًّا سمِّيَ: توجيهاً، إرشاداً، تحديثاً، تطويراً... أَو غير ذلك. وإذا كان سلبيًّا أَو لخدمة مصالح معيَّنةٍ لفئةٍ معيَّنةٍ أَو دولةٍ معيَّنةٍ سُمِّي أيضاً بالاسم الخاص به فكان على سبيل المثال: تغيير موقفٍ، صناعةً رأيٍ عامٍّ، تفكيك المجتمع، تفكيك مؤسَّسةٍ ما.... وهكذا.

هنا تجدر الإشارة إِلَى أنَّ هناك أشخاص قادرون على إحداث التَّغيُّر في المجتمع مثل الشُّعراء العظماء، الفنَّانون العظماء، الأعلام الذين يمتلكون قدرة التَّأثير في الجمهور لما يتمتَّعون به من علميَّة وقربٍ من قلوب الجمهور.

لا شكَّ في أنَّ هؤلاء الأعلام يمتلكون القدرة على إحداث التَّغيير، والقدرة على صناعة رأيٍ عامٍّ، وموقفٍ، وربَّما تغيير القناعات... ولكن هل يمكن إدراجهم ضمن آليَّة المجتمع الدِّفاعيَّة أم ضمن فئة صانعي التَّغيُّر، أَو مريدي التَّغيير؟

نحن هنا في حقيقة الأمر أمام مشكلةٍ، إذ ثَمَّةَ من يعدُّ هؤلاء الأعلام من مقرِّري التَّغيير وصانعيه، وثَمَّةَ من يعدُّهم جزءاً من الآليَّة التَّلقائيَّة للتَّغيُّر الاجتماعيِّ، وليس ثَمَّةَ مشكلةً في ذلك على أيِّ فأيَّان صنَّفنا هؤلاء الأعلام كنَّا مصيبين، لأنَّهُم فعلاً يندرجون في الجانبين، ومن الصُّعوبة بمكانٍ الفصل في انتمائهم إِلَى هذا الجانب أَو ذاك؛ الأمر مرتبط بطبيعة الإرادة الواقفة وراء مساعيهم التَّغييريَّة.

خصائص التَّغيُّر الاجتماعي والقيمي

آليَّات التَّغيُّر الاجتماعيِّ دائمة الحساسيَّة والقدرة على التَّحرُّك والفعل، ولكِنَّها تكون في بعض الحالات متبلِّدة بطيئة الاستجابة، ويصعب في حقيقة الأمر التَّكهن بهذه الحالات من التَّبلُّد، ولكِنَّها على الأرجح تكون كذلك

عندما يكون المجتمع في حالة الاستقرار وخاصَّةً الاستقرار اللاحق لفترة من التَّغيُّر الثَّوريِّ الكبير، أَو الانعطافات الكبرى أَو الحاسمة أَو المصيريَّة في حياته، وكذلك في حالات الصَّدمات الكبرى الَّتي يتلقاها وتربك آليَّاته الدِّفاعيَّة اللا شعوريَّة، وغير ذلك من الحالات الَّتي سيكون من العجيب أنَّها من الممكن بدلاً من تثبيط فاعليَّة آليَّات التَّغيُّر قَدْ تؤدِّي إِلَى ردود أفعالٍ سريعةٍ في إحداث التَّغيُّر في البنية الاجتماعيَّة أَو عنصر من عناصرها أَو أكثر.

في الحالة السَّويَّة للمجتمع تنهض آليَّاته الدِّفاعيَّة اللاشعوريَّة الجمعيَّة للتَّفاعل المباشر مع أيِّ طارئٍ يتعرَّض للبنية الاجتماعيَّة؛ تهديداً أَو تجديداً، ومن خلال هذا التفاعل يبدأ التَّغيُّر بالحدوث بما يتوافق مع الحدث الجديد. الحدث الجديد إذن أيًّا كان نوعه ومستواه وميدانه هو مفتاح عمل التَّغيُّر الاجتماعيِّ أَو القيميِّ عامَّة، وهذه أولى خصائص التَّغيُّر الاجتماعيِّ الَّتي سنذكرها على النَّحو التَّالي:

أولاً: اقتران التَّغيُّر بحدوث جديد

أولى خصائص التَّغيُّر الاجتماعيِّ أَنَّهُ لا يحدث غالباً إلا مع حدوث أمرٍ جديدٍ في المجتمع، ولا يشترط في هذا الجديد أيُّ شرطٍ سوى أن يكون جديداً مهما كان نوعه وميدانه وتقويمه، فقد يكون تهديداً، وقد يكون تجديداً، ويكون جيِّداً، وقد يكون سيِّئاً، وقد يكون معرفيًّا أَو أخلاقيًّا أَو سياسيًّا أَو اقتصاديًّا أَو جماليًّا أَو بيئيًّا أَو غير ذلك... إنَّ حدوث الجديد يشبه تماماً إلقاء الحجر في بركة ماءٍ راكدٍ.

هذا يعني، وهذا ما يقرِّره علماء الاجتماع، أنَّ المجتمعات المغلقة المنعزلة بعيدةٌ إِلَى حدٍّ بعيد عن أي رياحٍ للتَّغيُّر، وهذا ما يفسِّرُ لنا استمرار كثيرٍ من

المجتمعات الَّتي تسمَّى بالمجتمعات البدائيَّة على حالها منذ مئات وربَّما آلاف السِّنين حَتَّى حين اكتشافها، كما يفسِّر لنا استمرار الأقليات العرقية والدِّينيَّة في تعاضدها وعادتها وتقاليدها وعلاقاتها الاجتماعيَّة والدِّينيَّة ذاتها، والفرق في ذلك بَيْنَها وبَيْنَ المجتمعات البدائيَّة أنَّها تعي أنَّ الانفتاح على الآخرين سيأكل خصائص هويَّتها ولذلك تظلُّ محافظةً على تقوقعها وانغلاقها لحماية نفسها من رياح التَّغيُّر. ولذلك «فرَّق **أوجست كونت** بَيْنَ الاستاتيكا الاجتماعيَّة والديناميكا الاجتماعيَّة؛ الأولى هي دراسة المجتمعات في حالة استقرارها، أي دراسة المجتمع خلال فترةٍ زمنيَّةٍ معيَّنةٍ من تاريخه، أما الدِّيناميكا الاجتماعيَّة فهي دراسة قوانين الحركة الاجتماعيَّة والسَّير الآلي للمجتمعات الإنسانيَّة والكشف عن مدى التَّقدم الذي تخطوه الإنسانيَّة في تطوُّرها»(١٥).

ثانياً: التَّغيُّر الاجتماعي وصفي

أي إنَّهُ يعنى بوصف الواقع وما يطرأ عليه من تغيُّرٍ وتبدُّلٍ بسبب عوامل معيَّنةٍ، وإذا تناول الأسباب فإنَّهُ أيضاً لا يتعدَّى وصف هذه الأسباب، ولذلك «استعمل علماء الاجتماع اصطلاح التَّغيُّر الاجتماعيِّ للتَّعبير عن ظاهر التَّحوُّل والنُّموِّ والتَّكامل والتَّكيُّف والملاءمة... مما دفع هؤلاء العلماء إِلَى استخدام التَّغيُّر الاجتماعيِّ على أَنَّهُ لا يحتوي على أحكام تقويميَّة لما هو أفضل وما هو أسوأ، أَو ما هو خيرٌ وما هو شرٌّ، لكنَّهُ يقرِّر الواقع كما هو فعلاً في المجتمع...»(١٦). وهم محقُّون في ذلك إِلَى حدٍّ بعيدٍ، لولا أنَّ الوصف

---

(١٥) . حسين عبد الحميد أحمد رشوان: **تطور النظم الاجتماعية وأثرها في حياة الفرد**. المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية. ١٩٩٣م. ص٣.

(١٦) . فادية عمر الجولاني: **التَّغيُّر الاجتماعي**. ص١٣.

ذاته ينطوي على شيءٍ من التَّقويم. ولذلك فإنَّ مباحث مثل: بناء المجتمع، التَّركيب الاجتماعيّ، ميادين علم الاجتماع؛ الصِّناعيّ، الرِّيفيّ... يمكن أن تندرج تحت إطار مبحث التَّغيُّر الاجتماعي في بابه العريض.

ثالثاً: غير مسبق التخطيط

التَّغيُّر الاجتماعي بما هو آليَّة لا شعوريَّة تلقائيَّة تعمل على حماية المجتمع وحفظه بتغيير آليَّاته وبنيته لتتكيَّف مع المعطيات والظُّروف المستجدَّة عليه فإنَّهُ غير مخطَّطٍ مسبَّقاً، وإنَّما تتحرَّك آليَّاته وفق الظُّروف والمعطيات والشُّروط الجديدة الَّتي تطرأ عليه أَو على أحد جوانبه أَو عناصره، فدخول الهاتف إِلَى المجتمع غيَّر كثيراً في البنية الاجتماعيَّة على المدى البعيد، وأصَّل عادات وبنى تفكيريَّة جديدةً لم تكن موجودةً، ودخول الهاتف الخليوي إِلَى المجتمع غيَّر كثيراً أيضاً في بنية المجتمع وعاداته وسيغيِّر كثيراً أيضاً على المدى القريب(١٧)... وكلُّ ذلك من دون أن ينتبه المجتمع إِلَى ما حدث، ولم يكن قبل ذلك قَدْ خَطَّطَ لمواجهة هذه التِّقانة الجديدة أَو للتَّعامل معها... دخولها هو الذي حرَّك آليَّات التَّغيُّر المناسبة واللازمة وقادها بما يتناسب مع وجودها ومع الظَّروف والمعطيات المحيطة بالمجتمع.

رابعاً: غير محدد الهدف والغاية

كما أنَّ المجتمع لا يخطِّط مسبَّقاً لسيرورة التَّغيُّر، ولا في أثناء نهوض آليَّاته لإحداث التَّغيُّر المتناسب مع الظُّروف والمعطيات الجديدة، كذلك فإنَّ

---

(١٧) . ما ينطبق على الهاتف والهاتف الخليوي ينطبق أيضاً، من حيث المبدأ، على غيره من التقانات مثل التلفزيون، ثُمَّ الفيديو، ثُمَّ الحاسوب وما اتصل بالحاسوب مثل البريد الإلكتروني وشبكة المعلومات الدوليَّة، وكذلك ثورة المعلومات والبث الفضائي للقنوات التلفزيونية.

التَّغيُّر في أثناء حدوثه، أَو المجتمع في مواجهته للمعطيات الطَّارئة عليه لا يعلن أهدافاً أَو غاياتٍ محدَّدةً لعمليَّة التَّغيُّر، أي إنَّ التَّغيُّر بمعنًى آخر غير محدَّد الهدف والغاية على نحوٍ مُسَبَّقٍ، ولا حَتَّى في أثناء سيرورة التَّغيُّر. الغاية الوحيدة الَّتي تكون محدَّدةً هي إعادة صياغة البنيَّة الاجتماعيَّة؛ وعيها، عناصرها... بما يتناسب مع المعطيات الجديدة؛ سلبيَّةً كانت أم إيجابيَّة، أما الأهداف والغايات المشخَّصة فإنَّها لا تكون محدَّدةً ولا مطروحةً على بساط التَّغيُّر، وإنَّما تأخذ بالتَّحدُّد رُويداً رويداً مع سيرورة التَّغيُّر في هضم الجديد والالتفاف عليه، لتغدو هذه الأهداف والغايات وقائع متجسِّدة يعيشها المجتمع من دون أن يعي حقيقة ما حدث، كلُّ ما يعيه هو الممارسة الاجتماعيَّة الَّتي يتأقلم معها رُويداً رويداً وكأَنَّها نبتت من صلب الواقع الاجتماعيِّ الذي يعيشه حَتَّى لا تبدو غريبةً عنه، على الرَّغْمِ من أنَّها قَدْ تبدو في بعض الأحيان متعذَّرة الحدوث أَو التَّقبُّل في مرحلةٍ من مراحل سيرورة المجتمع، ورُبَّما يكون من أبرز الأمثلة على ذلك خروج المرأة سافرةً، فهذه الخروج كان ظاهرةً غير مقبولةٍ في المجتمع؛ الغربيِّ قبل الشَّرقيِّ أَو العرب، وريداً رويداً صار الأمر مألوفاً، ومألوفاً جدًّا، حَتَّى وصلنا إلى مرحلةٍ وزمنٍ يبدو العكس فيها هو المستهجن والغريب، وأنَّهُ هو الشُّذوذ والغلط، بل إنَّنا نجد الدُّول اليوم تتسابق على سنِّ التشريعات التي تمنع بحكم القانون ارتداد النِّساء غطاء الرَّأس. ومثل ذلك أيضاً كان أمرُ تقبيل الرَّجل المرأة في مكانٍ عامٍّ[١٨]، ففي مرحلة ما كان ينظر إِلَى من يقوم

(١٨) . من الطريف أن نشير هنا إِلَى أنَّ أول عمل سينمائي تظهر فيه قبلة طويلة أثار عاصفة من النقد والاستياء في المجتمعات الغربية وعلى رأسها بابا الفاتيكان، ولكِنَّها بعد زمن غير قليل صارت تقليداً لا يجوز أن يخلو منه فيلم سينمائي... ثُمَّ تجاوز السينمائيون ذلك إِلَى ما أكثر منه.

بهذا الفعل؛ الرَّجل والمرأة، على أَنَّهُ ماجنٌ أَو فاسقٌ أَو فاجرٌ أَو غير ذلك... وبالتَّدريج صار الأمر جدَّ مقبولٍ ومألوفٍ، بل لقد وصلنا إلى درجةٍ من (الرُّقيِّ الحضاريِّ) التي سنَّت فيها في كثيرٍ من الدُّول قوانين وتشريعات تمنع بل تعاقب من يسترق النَّظر أو يزعج أو يعكِّر مزاج من يمارس الجنس في قارعة الطَّريق، لأنَّ من يمارس الجنس في على أيِّ رصيفٍ أَو حديقةٍ فإنَّهُ يمارس حريَّته وحقه في الحريَّة ومن ينظر إليه يعتدي على حريَّة الآخرين، ومن يعتدي على حرِّيَّة الآخرين يجب أن يعاقب بحكم القانون... وعلى ذلك يمكن أن نقيس كثيراً من الظَّواهر الأُخْرى، والتَّغيُّرات الَّتي حدثت في المجتمع؛ أيِّ مجتمع.

خامساً: غير معروف النتائج

ومن خصائص التَّغيُّر الاجتماعي، وحَتَّى القيمي، أَنَّهُ غير معروف النَّتائج والعواقب سلفاً، فحدوث حادثٍ أَو دخول طارئٍ جديدٍ على المجتمع غير كافٍ لمعرفة ما يمكن أن يصل إليه التَّغيُّر الاجتماعيُّ أَو القيميُّ في المدى القريب أَو البعيد.

ومن ذلك على سبيل المثال أنَّنا نعرف أنَّ المجتمع الغربيَّ؛ الأوربيَّ والأمريكيَّ يتعاطف مع الكيان الصهيوني ويؤيِّده لأنَّ المعارف المتوافرة لديه تصوِّر هذا الكيان على أَنَّهُ مجتمعٌ هادئ وادعٌ مسالمٌ إنسانيٌّ ديمقراطيٌّ... يعيش وسط وحوشٍ غير متحضِّرين يريدون التهامه أَو إلقاءه في البحر.

وهنا نسأل: إذا عرف الغربيون الحقيقة كما هي فهل سينقلب ليتعاطف مع العرب؟ المنطق المجرَّد يفترض ذلك، ولكن منطق التَّغيُّر الاجتماعيِّ لا يعرف النَّتيجة، أي لا يعرف إن كان المجتمع سيتغلب على الحدث الطارئ

ويتجاوزه أم لا. وبهذا المعنى أشار **إلبرت مور** إِلَى أنَّ «المجتمع يشمل وحدات معتمدة على بعضها اعتماداً وظيفيًّا متبادلاً تقدِّم أساساً جيِّداً لتحليل منظَّمٍ ومترابطٍ للتغيُّر، لكنَّهَا لا تقدِّم أساساً كافياً للتنبؤ بالتَّغيُّر، أو حَتَّى تفسيره بطريقة عامَّة أَو قانونيَّة»(١٩).

إنَّ عدم معرفة النَّتائج مسبَّقاً، لا ينفي إمكانيَّة التَّنبُّؤ بها وتوقعها، ولكنَّ ذلك يبقى في إطار التَّنبُّؤ والتَّوقُّع لا في إطار الحتميَّة ولا الجبريَّة ولا القانونيَّة. وصدق التَّنبُّؤ في واقعٍ أَو مجتمعٍ ما، بناءً على آليَّةٍ قانونيَّةٍ أَو معياريَّةٍ معيَّنةٍ، لا يعني وجوب ولا حَتَّى إمكانيَّة صدقها للحدث ذاتها في واقعٍ أَو مجتمعٍ آخر. وهذا في حقيقة الأمر مما يزيد التَّعامل مع عالم الإنسان تعقيداً.

سادساً: غير معروف العواقب

كما أنَّ النَّتائج غير معروفةٍ ولا يمكن تحديدها مُسَبَّقاً بناءً على منطق الاستقراء أَو الاستنتاج أَو القياس... كذلك فإنَّ عواقب التَّغيُّر غير معروفةٍ أيضاً، وأعني بذلك أنَّ المجتمع يحرِّك آليَّات التَّغيُّر للعمل إذا اقتضت الضَّرورة ذلك، والضَّرورة هي حدوث أمرٍ طارئٍ، جديدٍ على المجتمع، والغاية المطلقة لذلك كما أشرنا هي إحداث التَّغيُّرات اللازمة للتَّكيُّف مع هذا الطَّارئ الجديد، ومن ثُمَّ فإنَّ النَّتائج المرتقبة من هذا الحراك الاجتماعي هو الوصول إِلَى تغيُّراتٍ تستطيع هضم هذا الوافد الجديد واستيعابه أَو التَّكيُّف معه. والافتراض المنطقي المبني على ذلك أنَّ عواقب التَّغيُّر، أي عواقب النَّتائج الَّتي ستحدث إثرَ سيرورة التَّغيُّر هي عواقب محمودة للمجتمع، أَو تعود عليه بالخير

---

(١٩) . عدلي أبو طاحون: **في النغير الاجتماعي**. ص٧١.

ضرورةً. ولكنَّ هذا الافتراض افتراض فَقَطْ، فقد تؤدِّي التَّغيُّرات إِلَى تدمير بنية المجتمع، أَو تفكيكه، أَو نسف أحد دعائمه أَو غير ذلك من العواقب الَّتي يصعب التَّكهُّن بها. ولكن على الأغلب الأعمِّ تكون العواقب متوافقةً مع النَّتائج الَّتي وضعها المجتمع نصب عملية التَّغيُّر.

سابعاً: سيرورته بطيئة

يجب هنا أن نميِّز بَيْنَ ردود الأفعال الاجتماعيَّة على الأحداث والمستجدَّات والمعطيات والظُّروف الجديدة من جهةٍ، والتَّغيُّر الاجتماعي من جهةٍ ثانيةٍ.

ردود الأفعال دائماً مباشرةٌ وغالباً ما تكون آنية الفاعليَّة والأثر، ولكِنَّها غالباً ما تفتقر إِلَى الدَّيمومة على النَّحو الذي كانت عليه لحظة ردَّة الفعل، ومن ذلك على سبيل المثال الرَّدُّ الاجتماعيُّ على أطباق الاستقبال الفضائيَّة في فترتها الأولى فقد ركَّزت على جوانب معيَّنةٍ دون وغيرها، وكان الاستياء الظَّاهري هو الغالب على التَّقبل. أما التَّغيُّر الاجتماعي فإِنَّهُ سيرورة بطيئة تشبه الإسفنجة الَّتي تتشرَّب الماء بهدوء حَتَّى ترتوي ثُمَّ تبدأ بترشيح هذا الماء.

لا شكَّ في أنَّ ردود الفعل الأولى يمكن أن يكون لها دورٌ في قيادة عمليَّة التَّغيُّر الاجتماعيِّ، ولكِنَّها ليست الحاسمة ولا النِّهائيَّة، فالمجتمع بعد أن يستوعب الحادث أَو الطَّارئ الجديد أيًّا كان نوعه وموضوعه وميدانه يبدأ بلعب دوره في صوغ الوعي الاجتماعيِّ وإعادة بناء البنية الاجتماعيَّة بما يتناسب مع هذا الظَّرف الجديد وفق خصائص المجتمع ومحددات هويته، ومن ذلك على المثال أنَّ أطباق الاستقبال الفضائيَّة هذه الَّتي أثارت زوبعةً من الاستياء في مرحلتها الأولى تحوَّلت إِلَى رويداً رويداً إِلَى حاجةٍ اجتماعيَّةٍ، ثُمَّ

ضرورةٍ من ضروريَّات الحياة الَّتي يصعب الاستغناء عنها، وتلاشت النَّظرة المحدودة الضَّيقة الَّتي كان ينظر من خلالها إِلَى مالكي هذه الأطباق.

ثامناً: قوي الأثر

انطلاقاً أيضاً من التَّمييز بَيْنَ ردِّ الفعل والتَّغيُّر الاجتماعيِّ نصل أيضاً إِلَى خاصَّةٍ جديدةٍ من خصائص التَّغيُّر الاجتماعيِّ وهو أنَّ النَّتائج الَّتي تلزم عنه قويَّة الأثر لأنَّها ليست محض ردِّ فعل محكوم بالانفعال الآني. ومعنى قوَّة الأثر أَنَّهُ يصير جزءاً من هويَّة المجتمع وخصائصه الَّتي تسود جميع أفراده وتمارس عليهم قوَّة القسر الاجتماعيِّ شأن غيرها من العادات والتَّقاليد والأعراف. وهذا أمرٌ عاديٌّ تماماً لأنَّ من وظائف التَّغيُّر الحفاظ على المجتمع وعلى هويته وعلى استقراره وتوازنه، وهذا ما لا يمكن أن يتمَّ من دون تكريس التَّغيُّر بوصفه جزءاً من الهويَّة أَو مكمِّلاً لها ومدعِّماً. وهذا ما تحاول الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة الاستفادة منه الآن في تكريس الأنماط الثَّقافيَّة الجديدة في المنطقة العربيَّة تحت عنوان دمقرطة المجتمعات العربيَّة، فما تريده وتعلنه أن تجعل أبناء المنطقة العربيَّة محبين للسَّلام متسامحين؛ فحبُّ السَّلام هذا والتَّسامح هذا يعنيان التَّسامح مع الكيان الصهيوني، والنَّتيجة هي هضم الكيان الصهيوني واستيعابه للوصول إِلَى القناعة بأنَّهُ جزءٌ من نسيج المنطقة وليس كياناً مصطنعاً.

تاسعاً: يتمتع بالديمومة النسبية

ومما يتَّسم به التَّغيُّر الاجتماعيُّ أيضاً الدَّيمومة، ولكِنَّها ديمومةٌ نسبيَّةٌ مرتهنةٌ بالمستجدات والمتغيِّرات الَّتي تطرأ على المجتمع من جهةٍ، وبالموجبات الَّتي أدَّت إِلَى التَّغيُّر في مرحلةٍ ما. فإذا فرضت الظُّروف على مجتمعٍ تغيراً ما

فإنَّ البنية الاجتماعيَّة تتَّسم أصلاً بالمرونة الكافية لهضم أيِّ ضغطٍ خارجيٍّ أَو داخليٍّ واستيعابه فِي إطار جملةٍ من التَّغيُّرات الكافية للتلاؤم معه إِلَى أن ينتهي الظَّرف الضَّاغط، ومثل هذا ما حدث بصورةٍ باتت واضحةً فِي المجتمعات الاشتراكيَّة الَّتي احْتُلَّت من قِبَلِ الاتحاد السُّوفيتي إثر الحرب العالميَّة الثَّانيَّة أَو وضعت تحت وصاية الاتحاد السُّوفيتي بمعنى أَو بآخر، بل حَتَّى مجتمعات الاتحاد السُّوفيتي ذاته... فكلُّ هذه المجتمعات تعرَّضت لظروفٍ ضاغطةٍ لم تجد بدًّا من التَّعامل معها بمرونة فحدثت بفترات متفاوتة تغيُّراتٌ اجتماعيَّةٌ كثيرةٌ لابتلاع الظُّروف والمعطيات الجديدة، ولكِنَّها مع ذلك ما إن أتيحت لها الفرصة المناسبة حَتَّى انقلبت خلال أزمنةٍ قياسيَّةٍ بسرعتها على عشرات السِّنين من التَّعايش مع ظروفٍ مخالفةٍ. ومثل ذلك تقريباً مع حدث مع شعوب المنطقة العربيَّة الَّتي تعايشت مع الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة بوصفها جزءاً من هذه الإمبراطوريَّة، ولكِنَّها انقلبت على هذا التَّاريخ الطَّويل والاندماج القويِّ مع رياح الفتح الإسلاميِّ وعادت بسرعةٍ قياسيَّةٍ للالتحام بالهويَّة الأصليَّة لها، الهوية العربيَّة.

إنَّ الأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، ولكنَّ الذي يستحق الذكر أَو الوقوف عنده هنا، فيما يتعلَّق بديمومة التَّغيُّر، من خلال الاستقراء التَّاريخي لظاهرة التَّغيُّر فِي المجتمعات، هو أنَّ ديمومة التَّغيُّر الاجتماعيِّ مرتهنةٌ بما ينسجم مع الخصائص الصَّميميَّة للمجتمع، والعناصر الجوهريَّة المكوِّنة لهويَّته، فالتَّغيُّرات الَّتي تنبع من صلب إرادة المجتمع ورغبته يكتب لها الدَّيمومة الَّتي قَدْ تصير جزءاً مكوِّناً لعناصر هويَّة المجتمع، والتَّغيُّرات الَّتي تُفْرَضُ على المجتمع فرضاً لسببٍ أَو لآخر لا يكتب لها من الدَّيمومة إلا ما دامت الظُّروف

الضَّاغطة موجودةٌ، ولَعَلَّ في تجربة الأندلس شاهدٌ واضحٌ على ذلك، وفي المقابل نجد المجتمعات الَّتي دخلت الإسلام راغبةً في آسيا أَو غيرها كيف حوَّلت الإسلام إِلَى جزءٍ من عناصر هويَّتها. ومثل هذا ينطبق أيضاً على الأديان الأُخْرى أَو المعتقدات الأُخْرى؛ سياسية أَو اقتصادية أَو غيرها.

خصائص التغيير الاجتماعي والقيمي

كما أنَّ التَّغيُّر الاجتماعيَّ في الميادين الأُخْرى حَمَلَ تسميات مرتبطةً بالميادين المنتمية إليها أَو أمكن إدراج هذه الميادين تحت إطاره العريض، كذلك فإنَّ التَّغيير الاجتماعيَّ حَمَلَ نظريًّا مسمَّياتٍ أُخْرَى مرتبطةً كذلك بطبيعة التَّغيير وغايته، أَو على الأصحِّ أمكن إدراج أنماط التَّغيير بمسمَّياتها تحت الإطار العريض للتَّغيير الاجتماعيِّ، ومن ذلك على سبيل المثال: الخدمة الاجتماعيَّة، التَّنشئة الاجتماعيَّة، التَّحديث، التَّطوير، التَّجديد، الإرشاد، التَّوجيه. ولكن هذه الميادين مجتمعةً لا تمثِّل التَّغيير الاجتماعيَّ كلَّه، فالتَّغيير أكثر شمولاً وأكثر تنوُّعاً من هذه الميادين، كما أَنَّهُ ليس مقتصراً على الفاعليَّة الإيجابيَّة أَو الَّتي تصبُّ في مصلحة المجتمع على المدى القريب أَو البعيد كما أشرنا.

على ضوء ذلك، ومن خلال مفهوم التَّغيير، يمكننا أن نعرض خصائصه الَّتي سنذكرها فيما سيأتي، مع الإشارة إِلَى أنَّها ليست نهائيَّةً ولا تامَّةً، ولكنَّنا نزعم أنَّها كافيةٌ ومغطيةٌ أبرز خصائص التَّغيير الاجتماعيِّ.

أولاً: مقترن بوجود فاعل

إذا كان التَّغيُّر الاجتماعيُّ مقترناً بوجودِ حَدَثٍ أَو أمرٍ طارئٍ على المجتمع فإنَّ التَّغيير الاجتماعيَّ مقترن بوجود إرادةٍ ساعيةٍ إِلَى إحداث تغير ما

في بنية المجتمع، مع امتلاك هذه الإرادة القدرة على إحداث التَّغيير في المجتمع أَو في عنصرٍ من عناصر بنيته.

هذا الفاعل قَدْ يكون داخليًّا أَو خارجيًّا، وقد يكون فرداً بقدرات مؤسَّسةٍ، أَو مجموعةً أَو مؤسَّسةً، بغضِّ النَّظر عن الغاية المرجوَّة من إحداث هذا التَّغيُّر في المجتمع، فإذا كان الفاعل داخليًّا فستكون غاياته على الأغلب الأعمِّ هي في خدمة مصالح المجتمع، أَو على الأقلِّ من وجهة نظر هذا الفاعل، لأنَّ النَّتيجة قَدْ لا يكون في مصلحة المجتمع كما ظنَّ الفاعل، أو أنَّ يوجد من يعترض على وجهة نظر الفاعل في الأثر الذي يريد إحداثه. ومثل هذا ما حدث على سبيل المثال في لجوءِ بعض قادة الدُّول إِلَى تحجيم التَّعليم وتضييق حدوده إيماناً منهم بأنَّ التَّعليم سيفسد المجتمع، أَو قيامهم مثلاً بمنع دخول بعض التَّقانات لإيمانهم بأَنَّها ستفسد المجتمع أَو غير ذلك من القناعات... وربَّما يجوز إدراج الدكتاتوريات تحت هذا الإطار من القناعات الَّتي تفكِّر عن المجتمع فترسم له رغباته وأهوائه إيماناً منها بأنَّ هذه هي مصلحة المجتمع.

أمَّا إذا كان الفاعل خارجيًّا فإنَّهُ على الأغلب، يسعى إِلَى إحداث تغييرٍ تخريبيٍّ في بنية المجتمع، ومن المؤكَّد تمام التَّأكيد أَنَّهُ يغير أو يريد أن يغيَّر في المجتمع الآخر من أجل خدمة مصالحه هو ذاته بغضِّ النَّظر عمَّا إذا توافق التَّغيير المحدث مع مصالح المجتمع أم لا، فرُبَّما يكون هذا التَّغيير مؤدِّياً فعلاً إِلَى تحقيق مصلحةٍ للمجتمع وهذا قليلٌ لكنَّهُ ممكنٌ في حدود معيَّنة. ولكنَّهُ في الأغلب سيؤدِّي إلى ضررٍ يلحق بمصالح هذا المجتمع. ومن ذلك على سبيل المثال أنَّ سعي الدُّول الأوربيَّة أَو أمريكا الآن إِلَى تحديث البنى التَّحتيَّة للدُّول

العربيَّة خاصَّة سيؤدِّي إِلَى تحقيق مصالح جيِّدةٍ بمعنى من المعاني للمجتمع العربي إذ سيرتقي به إِلَى الأفضل، ولكن من الزَّاوية الأُخْرى سنجد أنَّ إحداث هذا التَّغيُّر لا يقصد به تحديث البنى التَّحتيَّة للمجتمع العربيِّ من أجل مصلحة هذا المجتمع وإنَّما من أجل رفع سويَّة تعامل هذا المجتمع مع التَّقانة الَّتي ستصدِّرها الدُّول الغربيَّة إِلَى هذا المجتمع، أي إنَّ إحداث هذا التَّغيير يراد به تأهيل المجتمع العربيِّ ليكون سوقاً للمنتجات الغربيَّة لا أكثر... في أكثر التَّصورات براءةً وحسن نيَّة، وربَّما أكثرها سذاجةً.

ثانياً: محدَّد الغاية والهدف

طالما أنَّ التَّغيير منوطٌ بفاعلٍ يمتلك إرادة إحداث التَّغيير والقدرة عليه، فإنَّهُ يمتلك هدفاً واضحاً له وغايةً محدَّدةً. أي إنَّ النَّتيجة هنا تسبق الفعل، أي تسبق التَّغيُّر. على ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنَّ التَّغيُّر الاجتماعيَّ الحاصل بفعل الفاعل ليس هو ذاته الغاية أَو الهدف وإنَّما هو الأداة أَو الوسيلة للوصول إِلَى الغاية، وفي بعض الأحيان قَدْ تكون الغاية هي إحداث التَّغيير المطلوب ذاته وحسب. ومن الأمثلة على ذلك أنَّ **السَّادات** بُعيد استلامه السُّلطة أعطى التَّيار الإسلاميَّ مدًّا كبيراً، ولكنَّهُ لم يفعل ذلك لإيمانه وورعه وإنَّما فعل ذلك لتحييد التَّيَّار اليساريِّ الذي كان يملك مراكز الثِّقل في المجتمع المصري منذ أيَّام **عبد الناصر**، ولم يكن باستطاعة **السادات** تجميد مراكز ثقل التَّيَّار اليساريِّ إلا بإعطاء المدِّ للتَّيَّار الأصوليِّ. في هذا المثال ليس ثَمَّةَ توافق بَيْنَ التَّغيير المحدث والغاية المعلَّقة عليه.

المهمُّ هنا هو أنَّ الفاعل يعرف ماذا يريد أن يغيِّر ولماذا يريد أن يغيِّر، على الأقلِّ في المستوى النَّظري، لأنَّهُ من المحتمل أن نجد من يعرف ماذا يريد

أن يغـيِّر ولكنَّـهُ لا يعـرف لمـاذا يريـد أن يغـيِّر، أَو الأقـلّ لا يعـرف مـا الـذي سينجم عن هذا التَّغيير. وفي المقابل كذلك من المحتمل أن نجد من يعرف لماذا يريد أن يغير ولكنَّهُ لا يعرف ماذا يغيِّر، وهذا الاحتمال بشقَّيه ضعيفٌ ولكنَّهُ يظلُّ احتمالاً قائماً.

ثالثاً: يقوم على مخطط

إنَّ أيَّ عمـلٍ إراديٍّ صـغيرٍ يقـوم نظريًّـا علـى مخطَّـطٍ وبرنـامجِ عمـلٍ وخطـواتٍ متتاليـةٍ، ولـذلك لـن يكـون بـدعاً مـن الخيـال القـول إنَّ التَّغيـير الاجتماعيِّ يقوم على برنامجِ عَمَلٍ متتابع الخطوات والمراحل ضمن مخطَّطٍ محدَّدٍ لتحقيق التَّغيُّر المطلوب. ولأنَّ إحداث التَّغيُّر في المجتمع أمرٌ جدُّ معقَّدٍ وليس سهلاً على الإطلاق كما قَدْ يُظَنُّ فإنَّهُ سيقوم على مُخَطَّطٍ معقَّدٍ أيضاً وربَّما تكون السِّريَّة أحد أبرز عناصره الَّتي تضمن له النَّجاح لأنَّ إفشاءه سيكون الضَّامن الأكيد لإخفاقه.

ولذلك من الضروريِّ جدًّا أن نشير هنا إِلَى أنَّ إفشاء غايات بعض المخطَّطات أَو لبرامج التَّغييريَّة ليس عَبَثاً ولا خطأً ولا زلَّةً ولا تسريباً بالخطأ كما يزعمون عند الكشف عن مثل هذه المخطَّطات... وإنَّما له غايته أيضاً الَّتي لا يعرف كنهها في الغالب إلا صاحب المخطَّط، ولكنَّ الاحتمال الأكيد لمثل هذا التَّسريب هو ضمان نجاح مخطط آخر يمكن استقراء معالمه من خلال المخطَّط الذي تمَّ تسريبه والغايات التي أعلنت منه[٢٠].

(٢٠) . سنقف في الفصل الثالث عند أنموذج تطبيقيٍّ لمثل هذا التسريب وكيفيَّة قيادة عمليَّة التغيير بهذه الطريقة.

إنَّ تغيير ميول أَو أهواء أَو معتقدات فردٍ أَو مجموعة أفرادٍ أمرٌ يسيرٌ وممكنٌ جدًّا قَدْ يؤدِّي إليه حوارٌ ذكِيٌّ قصيرٌ، أَو تجربةٌ مبرمجةٌ، وقد هناك العديد من التَّجارب التي أثبتت هذه الحقيقة منها «التَّجربة التي قام بها **مظفر شريف** في جامعة أكلاهوما الأمريكية، والتي أسماها **كهف روبير**، بَيَّن فيها كيف استطاع في غضون أسابيع قليلةٍ أن يجعل مجموعتين من الأطفال الأسوياء، في سنِّ الحادية عشرة، في حالة من العداء الشَّديد، ومن ثمَّ كيف استطاع القيام بعكس العمليَّة نهائياً»[٢١]، من دون أيِّ تدخُّلٍ مباشرٍ. علماً بأنَّ الأطفال كانوا متصادقين حتَّى لحظة البدء بالتَّجربة.

أما تغيير ميول بنية اجتماعيَّة فهو أمرٌ معقَّد جدًّا، رُبَّما يستند إِلَى آليَّة تغيير قناعات فردٍ أَو مجموعة أفرادٍ وهذا أمرٌ شبه مؤكَّد ولكنَّهُ أعقد من ذلك بكثير، ولذلك فإِنَّهُ يحتاج إِلَى مخطَّط معقَّدٍ أيضاً ومدروسٍ بعنايةٍ فائقةٍ من قبل فريقٍ من المختصِّين المحترفين. وهو يحتاج إِلَى نَفَسٍ طويلٍ وخطَّةٍ مديدة الزَّمن، وأكثر ما يحتاج إليه هو السِّريَّة كما أشرنا وبيَّنا.

رابعاً: غير معروف النتائج بالضرورة

على الرَّغْمِ مما أشرنا إليه من ضرورة ضبط المخطَّط وبرنامج العمل لإحداث التَّغيير فإِنَّ الدِّقَّة مهما كانت متناهيةً فإنَّها ليست بالضَّرورة مضمونة النَّتائج، المؤكَّد أنَّ نتائجَ ما ستنجم عن برنامج التَّغيير، ولكنَّهَا غير معروفةٍ بالضَّرورة، إنَّها في إطار التَّوقُّع، ولكِنَّها

(٢١) ـ مارتين هربرت: **مشكلات الطفولة** ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ص٣٤١.

تعلـو علـى ذلـك بـأَنَّ لهـا أرجحيَّـةً كـبرى للتَّحقُّـق، واحتماليَّـة تحقُّقـها تكـون أعظميَّةً إذا مـا قـورنت مـع احتمـالات الإخفـاق. ومـن ذلـك علـى سـبيل أنَّ كـل المسـاعي الأمريكيَّـة والصـهيونيَّة لصـناعة رأيٍ عـامٍّ أَو موقـفٍ مسـالمٍ للكيـان الصـهيوني في الشَّـارع المصـري منـذ اتفاقيَّـة كامـب ديفيد قَدْ باءت بالإخفاق الذَّريع.

خامساً: سيرورته مرتبطة بغايته

طالما أنَّ التَّغيير معلَّقٌ على غايةٍ محدَّدةٍ وواضحةٍ عند الفاعل فإنَّ سيرورة التَّغيير وخطواته ومراحله مرتبطةٌ بالغاية الَّتي يريدها الفاعل، ولذلك قَدْ يكون برنـامج التَّغيـير مرسـوماً لعشـرات السِّـنين، والكثـير مـن المراحـل والخطـوات الكبرى. ورُبَّما يتعرَّض البرنامج أَو المخطَّط للتَّعديل أَو التَّغيير مع الزَّمن والنَّتائج الَّتي تظهرها سيرورة التَّغيير.

سادساً: غير مرتهن بالظروف المحيطة

إنَّ من يسعى إِلَى إحداث تغييرٍ معيَّنٍ في مجتمعٍ معيَّنٍ إنَّما يبحث عن تحقيق نتيجةٍ أَو غايةٍ محدَّدةٍ هي الَّتي تعنيه، ولذلك لن يكون مكترثاً بظروف المجتمع وخصائص المرحلة الَّتي يعيشها هذا المجتمع إلاَّ بمقدار ما يمكن أن يستفيد من هذه الظُّروف والمعطيات أَو يلتف عليها من أجل إحداث التَّغيُّر المرغوب.

لا شكَّ في أنَّ ظروف المجتمع ومعطياته وخصائص المرحلة الَّتي يمر بها تلعب دوراً بالغ الأهميَّة في تحديد مشروع التغيير وبرنامجه ومخططاته، ولكِنَّها لا تعـني المخطـط أَو الفاعـل إلا مـن بـاب توظيفهـا إن أمكـن أَو تجاهلهـا إذا استدعى الأمر ذلك.

سابعاً: التغيير بالإرادة والعواقب ليست بالإرادة

إذا كان إحداث تغيُّرٍ ما محدَّد أمراً برغبة الفاعل وهذا ممكنٌ جدًّا، فإنَّ ما سيتلو هذا التَّغيير من عواقب أمرٌ غالباً لن يكون بإرادة الفاعل التَّحكمُ به أَو توجيهه. فإذا افترضنا جدلاً أنَّ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة تريد تطبيق الدِّيمقراطية في العالم العربي؛ أي دمقرطة العالم العربي كما أعلنت ذلك، فإنَّها رُبَّما تستطيع ذلك، ورُبَّما تنجح، ولكِنَّها بالتَّأكيد لن تستطيع التَّحكُّم بما بعد تحقيق الدِّيمقراطيَّة.

هذا من جهةٍ أولى ومن جهةٍ أُخْرَى فإنَّ تحقيق التَّغيير المطلوب أمرٌ ممكنٌ، وهو قيد الضَّبط والتَّحكُّم، ولكن ليس ثَمَّةَ ما يضمن حدوث تغيُّراتٍ أُخْرَى مرافقةً لم تكن موجودةً في الحسبان، ورُبَّما تكون غير مرغوبةٍ ولا مرجوةٍ.

آليات التَّغيُّر والتغيير القيميين

طالما أنَّ التَّغيُّر موجودٌ فإنَّ آليَّته موجودةٌ معه بالضَّرورة. ولكن إذا كان من السَّهل أَو اليسير اكتشاف وجود التَّغيُّر والوقوف على آثاره فإنَّ من الصُّعوبة بمكانٍ اكتشاف آليَّات التَّغيُّر، أَو الزَّعم أنَّها مكتشفةٌ، ومن الخطأ الظنُّ أنَّ ثَمَّةَ كَشفاً نهائياً لها...

وكذلك شأن التَّغيير أيضاً. ولكنَّهُ يفترق عن التَّغيُّر، هنا، بأنَّهُ إذ وُجِدَ فإنَّ مُوْجِدَهُ يعلم بالضَّرورة آليَّاته لأنَّهُ هو الذي يقرِّرها ويرسم معالمها وخطواتها. ولكنَّ الذي تجدر الإشارة إليه هنا هو أنَّ الآليَّات الَّتي يقرِّرها مريد التَّغيير ليس من الضَّروري أن تكون هي الكافية أَو الوحيدة أَو الأكيدة أَو الأكثر نجوعاً.

أولاً: آليات التَّغيُّر

ثَمَّةَ أكثر من وجهة نظر تحاول فهم آليَّة التَّغيُّر، ولكن ما وجدناه لا يعدو كونه رؤًى أيديولوجيَّة مؤكِّدَةً لمبادئها أَو أحاديَّة الرُّؤية تنظر إِلَى التَّغيُّر من زاويةٍ واحدةٍ غير كافيةٍ لفهم التَّغيُّر ولا لفهم آلية التَّغيُّر.

ولذلك فإنَّ كلَّ النَّظريَّات الَّتي نَظَرَت إِلَى التَّغيُّر نظرةً سطحيَّةً أحاديَّةً على أَنَّهُ الانتقال من المجتمع البسيط إِلَى المجتمع المركَّب أَو المعقَّد أَو ما يشبه ذلك، لا تعدو كونها نظريَّاتٍ قاصرةً اكتفت بالإمساك بخيطٍ واحدٍ من نسيج المشكلة، ومن هذه النَّظريات نجد مثلاً نظريَّة **هربرت سبنسر** الذي فهم التَّغيُّر على أَنَّهُ «تطوُّر من مجتمعٍ بسيطٍ بتركيبته ووظائفه إِلَى مجتمعٍ معقَّدٍ ومتشعِّبٍ»[٢٢]، انطلاقاً من رؤيته «أنَّ المجتمع كائنٌ عضويٌّ ينمو ويتمايز في البناء والوظيفة، ويتمثل التَّغيُّر الاجتماعي عنده في زيادة التَّمايز وتقسيم العمل»[٢٣]، ومن ثمَّ فإنَّ آليَّة التَّغيُّر هي آلية الانتقال من البسيط إِلَى المركَّب. ومثل **سبنسر** تماماً كان شأن **تونيس** الذي رأى في التَّغيُّر انتقالاً من المجتمع البسيط إِلَى المجتمع المركَّب[٢٤]. ولم يختلف عنهما **رودفيلد** الذي ذهب إِلَى أنَّ التَّغيُّر الاجتماعي هو «التَّطوُّر من المجتمع الشَّعبي إِلَى المجتمع الحضري»[٢٥]،

---

(٢٢) ـ دينكين ميتشيل: **معجم علم الاجتماع** ـ ترجمة إحسان محمد الحسن ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٨٦م ـ ص١٢٠.

(٢٣) ـ صبحي محمد فنوص: **علم دراسة المجتمع** ـ ص ١٣٩.

(٢٤) ـ نبيل السمالوطي: **علم اجتماع التنمية** ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١م ـ ص٣١٣.

(٢٥) ـ م. س ـ ذاته.

وعلى نحوٍ مماثلٍ سار **إميل دركهايم** الذي فهم التَّغيُّر على «أَنَّهُ الانتقال من مجتمع التَّضامن الآليِّ إِلَى مجتمع التَّضامن العضويِّ»[٢٦].

وكما أنَّ هذا النَّمط من النَّظريات كان قاصراً عن فهم التَّغيُّر الاجتماعيِّ وآليَّاته كذلك فإنَّ النَّمط الذي فهم التَّغيُّر الاجتماعي على أَنَّهُ نتيجة للصِّراع؛ أيَّاً كان نوع الصِّراع، لم يبتعد كثيراً في قصوره وعدم كفايته عن النَّمط السَّابق، ومن ثمَّ فإنَّ فهمه لآلية التَّغيُّر ظلَّ محصوراً في أطر ضيِّقةٍ تفهم جانباً واحداً من حقيقة التَّغيُّر وفاعليَّته وآليَّته... ورُبَّما يمكن الرُّجوع هنا إِلَى **هيرقليطس** أبو الجدل، الذي قال: «الحرب أبو الجميع»[٢٧]، ومن ثمَّ، كما يضيف، «على الإنسان أن يعرف أنَّ الحرب عامَّة والشَّريعة هي النِّزاع، وكلُّ شيءٍ يبرز إِلَى حيِّز الوجود عن طريق النِّزاع والضَّرورة»[٢٨]، لينجم عن ذلك أنَّ التَّغيُّر الاجتماعيَّ هو نتيجة هذه الحرب وهذا الصِّراع بَيْنَ الكلِّ، ولن يتسنَّى للنَّاس «أن يعرفوا الحقَّ لو كانت الأضداد غير موجودةٍ»[٢٩].. وممَّن جاء بعده **توماس هوبز** الذي ذَهَبَ إِلَى أنَّ «الإنسان ذئبٌ لأخيه الإنسان»، ورأى من ثمَّ أنَّ المجتمع البشري في حالة صراعٍ دائمٍ، ليكون التَّغيُّر الاجتماعيُّ نتيجةً لهذه الآليَّة الصِّراعيَّة. وتبعه في ذلك **لويس كوسير** الذي «رأى في الصِّراع الأداة الرَّئيسيَّة للتَّغير الاجتماعيِّ»[٣٠]. ومثلهما، ولكن بصيغة أُخْرَى،

---

(٢٦) . م. س. ذاته.

(٢٧) . هيرقليطس: **جدل الحب والحرب**. الشذرة ٥٣.

(٢٨) . م. س. شذرة ٨٠.

(٢٩) . م. س. الشذرة ٢٣.

(٣٠) . عبد العزيز الخطيب: **اتجاهات تغير البنية الاجتماعية في مدينة معضية الشام**. ص٦٩.

كان شأن **داروين** في نظريَّة تطوُّر الأنواع والصِّراع من أجل البقاء. ثُمَّ **كارل ماركس** الذي رأى أنَّ جوهر التَّاريخ وسيرورة البشريَّة هو صراع الطَّبقات، والتَّغيُّر الاجتماعيُّ هو النَّتيجة المباشرة لهذا الصِّراع. وتبعه في ذلك **دارندروف** الذي «رأى أنَّ القوَّة الخلاقة العظيمة الَّتي تؤدي إِلَى التَّغيُّر في المجتمع هي الصراع»(٣١).

وكما أنَّ تفسير التَّغيُّر بالصِّراع وحده ليس إلاَّ نظرةً أحاديَّة الرُّؤية والاتِّجاه غير كافيةٍ إلا لتفسير الجانب الذي نظرت إليه أَو من خلاله، كذلك إذا اتجهنا إِلَى الاتجاه المقابل وجدنا أنَّنا أمام رؤية أحاديَّة أيضاً، **فبارسونز** مثلاً يرى، على عكس أصحاب نظريَّة الصِّراع، «أنَّ التَّوازن والاستقرار هو الأصل، ولذلك فإنَّ استمراريَّة الأنماط الاجتماعيَّة وصيانتها والمحافظة عليها لا تمثل مشكلة للنِّظام، ولا تتطلَّب تفسيراً، لكن التَّغيُّر هو الذي يتطلَّب الشَّرح والتَّفسير»(٣٢). وفي اتجاه مشابه، ولكن من زاوية أُخرَى، ذهب كلٌّ من **كوزر وكولكمان** إِلَى «أنَّ الصِّراع والمواجهات الَّتي تقع في جوانب مختلفة من المجتمع قَدْ تسبب الاستقرار والهدوء»(٣٣).

إنَّ هذه النَّظريَّات في فهم التَّغيُّر ومن ثمَّ آليَّاته غير كافيةٍ لفهم آلية التَّغيُّر وإيضاحها لأنَّها لا تنظر إلاَّ إِلَى جانبٍ واحدٍ من هذه الظَّاهرة، ذلك أنَّ عمليَّة التَّغيُّر أَو آليَّته «ليست محض إضافةٍ آليَّة أو إقصاء لبعض الأنماط

---

(٣١) . م. س. ذاته.

(٣٢) . عدلي أبو طاحون: **في التَّغيُّر الاجتماعي**. ص٥٣.

(٣٣) . دينكين ميتشيل: **معجم علم الاجتماع**. ص ٥٧.

والسِّمات السَّابقة بطريقةٍ كميَّةٍ. وإنَّما هي إِلَى جانب ذلك عمليَّة إضافةٍ وتعديلٍ كيفيٍّ لمسافات ثقافيَّة مختلفة»[٣٤].

بمعنى آخر يمكن القول إنَّ آليَّة التَّغيُّر هي الآليَّة الجدليَّة التَّلقائيَّة الَّتي تربط بَيْنَ مختلف المعطيات والشُّروط والظُّروف والعناصر... الَّتي تشكِّل مقوِّمات البنية الاجتماعيَّة وعناصر تشكيلها وتحديدها الجوهريَّة خاصَّة والشَّكليَّة أَو العرضيَّة عامَّة، إذ إنَّ ثَمَّةَ علاقات وروابط بَيْنَ كلٍّ هذه المكوِّنات تتفاعل فيما بَيْنَهَا تفاعلاً دائماً تكون نتيجتهَ الاستقرار الاجتماعي فإذا حدث خَلَلٌ أَو تقصيرٌ في أي عنصرٍ أَو مكوِّنٍ من هذه المكوِّنات تَغَيَّرت مدخولات التَّفاعل لتحقيق النَّاتج ذاته وهو الاستقرار الاجتماعيُّ. ولأنَّ هذا النَّاتج بحاجةٍ إِلَى مُعَايَرَةٍ تظلُّ تَتَغَيَّرُ مدخولات التَّفاعل بَيْنَ مكوِّنات البنية الاجتماعيَّة ما بَيْنَ زيادةٍ ونقصٍ حَتَّى تنجح المعايرة ويعود المجتمع إِلَى الاستقرار. وهذا ما يفسِّر لنا السَّبب الذي يضطرب فيه التَّغيُّر الاجتماعيُّ في المجتمعات القلقة الكثيرة التَّغيُّرات، لأنَّهُ كُلَّما اختلَّ عنصرٌ من عناصر التَّركيبة الاجتماعيَّة زاد الاضطراب في التَّحكُّم بمدخولات التَّفاعل بَيْنَ مكوِّنات البنية الاجتماعيَّة وطال الأمد أَو كَبُرُ الخلل في المعايرة الَّتي تسعى إِلَى النَّتيجة المطلوبة وهي الاستقرار.

يؤكِّد **ماكس ڤيبر** «أنَّ التَّغيُّر الاجتماعيَّ يعتمد على الأفكار أكثر مما يعتمد على العناصر الماديَّة الملموسة، فالعمليات الَّتي تدخل في التنظيم الاجتماعي للمجتمع وتحدِّد تركيبته الاجتماعية تستند إِلَى

(٣٤) ـ فادية عمر الجولاني: **التَّغيُّر الاجتماعي؛ مدخل النظرية الوظيفيَّة لتحليل التَّغيُّر** ـ ص٩.

المعلومـات الثقافيـة اللامـادية»[٣٥]. ولم يبتعـد **سـوركين** عـن هـذا المعـنى عنـدما «أكَّـد دور الأنسـاق الثَّقافيَّـة في عمليَّـة التَّغـيُّر الاجتمـاعي»[٣٦]. وهـذا الكـلام حـقٌّ، ولكـن فَقَـطْ إذا حملنـاه علـى أَنَّـهُ يعـني بـذلك الآليَّـة الَّـتي يـتمُّ بهـا التَّغـيُّر الاجتمـاعي، فالأفكـار بمعناهـا الواسـع هـي الَّـتي تمثـل جـوهر آليـة التَّغـيُّر والتغيـير، ولكِنَّهـا لا تسـتغني عـن العامـل المـادي بوصـفه عاملاً مساعداً لتحقق التَّغيُّر وتحقيق التَّغيير.

إنَّ هـذه الآليَّـة، والمعـايرة الَّـتي يـتمُّ بهـا ضـبط التَّفاعـل محكومـةٌ بعوامـل الضَّبط الاجتماعيِّ، فلكلِّ مجتمعٍ عوامله الضَّابطة الَّتي يختصُّ بها دون غيره من المجتمعات، ولكن هناك بالتَّأكيد خيوطٌ مشتركةٌ بَيْنَ المجتمعات من حيث عوامل الضَّبط هـذه. يرى **مـاكس ڤيبـر** «أنَّ النُّظم الدِّينيَّة هي الَّتي تتحكَّم بدرجةٍ مطلقةٍ في الحياة الاقتصاديَّة وما يترتب عليها من حياة اجتماعيَّة»[٣٧]. أي إنَّ الدِّين هـو القاسـم المشـترك بَـيْنَ المجتمعـات بوصـفه عـاملاً مـن عوامـل الضَّـبط، بـل إنَّ **ڤيبـر** يرى أنَّ النُّظم الدِّينيَّة هـي الَّتي تتحكَّم تحكُّماً مطلقاً بعمليَّة التَّغيُّر والتَّغيير أيضاً.

يمكن الاتِّفاق مع **ڤيبر** في الأهميَّة الكبرى للدِّين في ضبط التَّغيُّر، ولكن المجتمعـات المعاصرة جرَّدت مـن الـدِّين نُظُمـاً وضـوابط وقيمـاً تسـتند إليهـا في ضبط التَّغيُّر، ثُمَّ تجاوزت المجتمعات هذه الضَّوابط وهي في طريقها إلى انفتاح آفاق التَّغيُّر انفتاحاً رُبَّما يكون مرعباً...

---

(٣٥) . صبحي محمد قنوص: **علم دراسة المجتمع**. ص١٤٣.

(٣٦) . عبد العزيز الخطيب: **اتجاهات تغير البنية الاجتماعية في مدينة معضية الشام**. ص٥٥.

(٣٧) . م. س. ذاته.

ثانياً: آليات التغيير

لا شكَّ في أنَّنا سنجد اختلافاً بَيْنَ آليَّات التَّغيير وآليَّات التَّغيُّر، وهذا استنتاجٌ منطقيٌّ سليمٌ من النَّاحية النَّظريَّة، ولا غبار عليه، ولكن الفرق لن يكون في حقيقة الأمر إلا في مستوى التَّخطيط، لأنَّ أيِّ تغيير لن ينجح إلا إذا لبس لبوس التَّغيُّر الذي يفرض إيقاعه على المجتمع بسهولةٍ كبيرةٍ، ومن ثَمَّ فإنَّ آليَّة التَّغيير هي ذاتها آليَّة التَّغيُّر، مع مراعاة أنَّها تسير هنا وفق برنامجٍ مُخَطَّطٍ يديره فريقُ عملٍ مختصٍّ، ولذلك يرى **كيرت ليوين** «أنَّ أيَّ تغييرٍ اجتماعيٍّ مُخَطَّطٍ عليه أن يقدِّر عدداً كبيراً من العوامل المميِّزة لحالةٍ خاصَّة. فالتَّغيير يمكن أن يتطلَّبَ مجموعةً من المقاييس التَّعليميَّة والتَّنظيميَّة الفريدة من نوعها إِلَى حدٍّ ما. ويمكن أن يعتمد على معالجات مختلفة تماماً أو أيديولوجيا أَو توقُّع أو تنظيمٍ... وعلى الرَّغْمِ من ذلك لا بُدَّ أن ننظر دائماً إِلَى بعض المبادئ الشَّكليَّة العامَّة»[(٣٨)].

وبالإضافة إِلَى ذلك يمكن القول إنَّ آليَّة التَّغيير مرتبطةٌ بالغاية المرسومة وخاضعةٌ لها، بحيث تُسَخَّرُ كلُّ الظُّروف والمعطيات الممكنة لتحقيق هذه الغاية.

خاتمة

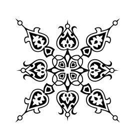
لن نختم بعرض مكثف للنتائج أَو المقترحات ولا بتلخيص البحث، بل بالفكرة الَّتي وقفت وراء البحث والغاية الَّتي نعلِّقها عليه.

(٣٨) ـ كيرت ليوين: **ديناميكية الجماعة والتَّغيُّر الاجتماعي** ـ ضمن كتاب: **التَّغيُّر الاجتماعي** ـ تحرير إميتاي اتزوني و اتيا اتزوني ـ ترجمة أحمد حنونة ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٤م ـ ج٢ ـ ص ١٨٤.

التَّغيُّرُ آليَّةٌ مجتمعيَّةٌ تَلقائيَّةٌ والتَّغيير فاعليَّةٌ بشريَّةٌ إراديَّةٌ. وإذا كان علم التَّغيُّر حديثاً فإنَّ علم التَّغيير ما زال غضًّا رُبَّما لم تكتمل ولادته بعد، ومجالات تطبيقه خصبةٌ، والآفاق أمامه مفتوحةٌ، والإمكانات المتاحة أمامه هائلةٌ، ومجتمعنا العربيُّ بحاجةٍ ماسَّةٍ إِلَى حرق مراحل كثيرة لتجاوز أزماته وواقعه المتردِّي بالمقارنة مع المجتمعات المتقدِّمة... فلماذا لا نستفيد من هذا العلم في حلِّ كثيرٍ من مشكلاتنا وخلق مجتمعٍ خلاَّقٍ حيويٍّ؟؟

بل إنَّ ما ينبغي الانتباه له أكثر في هذا السِّياق هو أنَّ العالم الغربيَّ يرسم المخطَّطات الخطيرة التي يعلن عنها لإحداث التَّغيُّرات القيميَّة الخطيرة في عالمنا العربيِّ والإسلاميِّ، وقد بدأت الولايات المتحدة خاصَّةً بتنفيذ هذه المخطَّطات والمشروعات علناً وصراحةً...

ينبغي أن نعي هذه الحقائق جيِّداً وننتبه لها ونتسلَّح بما يجلعنا نحافظ على الأشياء الجميلة فينا... على الأقلِّ الأشياء الجميلة. وهي مسؤوليَّةٌ كبيرةٌ ملقاةٌ على كلِّ الأعناق بلا استثناء.



الفصل الثاني

الثورة التقانية والتغير القيمي

إنَّ الثَّورة الثَّقافيَّة والمعرفيَّة والمعلوماتيَّة المتواشجة الأواصر الَّتي حدثت في هذه السَّنوات الأخيرة تفوق بقوَّتها وعنفوانها وأثرها ما حدث من تغيرات طيلة مراحل التاريخ مجتمعة.

تغير القيم ليس ردود أفعال مباشرة وإنَّما هو ردود أفعال بعيدة الترجيع والمدى تشبه إِلَى حدٍّ ما تفجُّر ينبوعٍ صغيرٍ يبدأ بشقِّ طريقه في الرِّمال؛ تتسرب كثيرٌ من المياه، ويتغير المسار غير مرَّة... ولكنَّهُ بعد زمنٍ غير قليلٍ يكون قَدْ صار نهراً... بهذه الآلية يكون التَّغيُّر القيمي.

رُبَّما بات من المسلَّمات أنَّ التَّغيُّر واحدٌ من سنن الحياة. ومن الضُّروب الأُخْرى للمسلَّمات أَنَّهُ لا نتائج من دون مقدِّمات. أي إنَّ التَّغيُّر إن كان هو النَّتيجة فإنَّ لها أسباباً ومقدِّمات، وإن كان هو ذاته المقدِّمة فإنَّ له نتائج وتبعات.

التَّغيُّر إذن مقدِّمةٌ ونتيجةٌ، فأيُّ تغيُّر في أيِّ ميدان من الميادين إنَّما هو مرتبطٌ بتغيُّرٍ سابقٍ عليه في الظُّروف أَو الشُّروط أَو المعطيات... فإذا أهملنا التَّغيُّرات الَّتي تطرأ على الطَّبيعة ومظاهرها وعناصرها، وهي جزءٌ لا يجوز إهماله من سيرورة التَّغيُّر، أمكننا الالتفات إِلَى التَّغيُّر في عالم الإنسان. والتَّغيُّر في عالم الإنسان مفتوح الآفاق والميادين بدءاً من محيطه المندرج تحت معطف الطَّبيعة، وصولاً عالمه القيمي غير المنفصل عن هذه الطَّبيعة فعلاً وانفعالاً.

إنَّ إحالة كلِّ تغيرٍ إِلَى تغيُّرٍ سابقٍ عليه بوصفه مقدِّمة أَو سبباً يحيلنا إِلَى سلسلةٍ غير منتهيةٍ منطقيًّا من التَّغيُّرات، اللهم إلا إذ امتدَّت على غرار العِلَّة

والمعلول، الَّتي تنتهي عند الفلاسفة أَو بعضهم عند عِلَّةٍ أولى هي عِلَّة العلل أَو المبدأ الأول أَو المحرِّك الأول الذي اختلفت تسميته بَيْنَ الفلاسفة واتَّفق الدِّينيون منهم على أنَّها الله.

قَدْ يكون من الجائز ربط التَّغيُّر بتغيُّر سابقٍ على أساسٍ مشابهٍ لتتابعية العِلَّة والمعلول، السَّبب والمسبِّب السَّابقة. ولكنَّ إحالة كلِّ تغيُّر إِلَى تغيُّر سابقٍ عليه ليست من هذا الباب على الإطلاق، لأنَّها آليَّةٌ تفاعليَّةٌ دوريَّةٌ، أَو تسير في مسارٍ دائريٍّ تتفاعل فيه كلُّ العناصر تفاعلاً جدليًّا تكامليًّا بما يشبه التَّغذية الرَّاجعة أَو التَّغذية الذاتيَّة، فنُقْلَةٌ واحدةٌ في يومٍ ما من عمر البشريَّة كافيةٌ لإحداثِ مسلسلٍ من التَّغيُّرات لا ينتهي، ناهيك عن التَّغيُّرات الطَّبيعيَّة الَّتي لا ينعدم دورها في إحداث التَّغيُّر في عالم الإنسان؛ في مختلف ميادينه وأحواله.

قديماً قيل: لكلِّ شيءٍ علاقةٌ مع كلِّ شيء، وهذه هي حقيقة وجود الإنسان وعلاقته مع الطَّبيعة والكون... والتَّغيُّر الذي يحدث في جانبٍ من جوانب الحياة كافٍ ليدور بفعله في التَّغيير على مختلف الجوانب ويعود بالفعل على ذاته من جديد، ومن جديدٍ يمارسُ فعله التَّغييري في دورة تغييريَّة أُخْرَى تنتهي عند هذا الجانب ذاته بوصفه بداية سلسلةٍ جديدةٍ أَو حلقةٍ من هذه السلسلة... وهكذا.

التَّغيُّر إذن موجودٌ منذ وجد الإنسان، وقد مرَّ هذا التَّغيُّر بمحطَّات نوعيَّة ووثبات كبرى في تاريخ البشريَّة ارتبطت بقوَّة التَّغيُّرات المرافقة المنبثقة عن طبيعة الظُّروف والشُّروط والمعطيات والمرحلة التَّاريخيَّة؛ اكتشاف النَّار، اختراع الكتابة، ظهور الأديان، اختراع الورق، اختراع الطِّباعة، اختراع الآلة البخاريَّة، الحروب الكبرى.... وغيرها مما هو في قيمتها أَو قوتها. وكل هذه التَّغيُّرات

أدَّت إِلَى تغيُّرات قيميَّة ارتبطت قوَّتها بقوة التَّغيُّرات المؤديَّة إليها. واليوم نحن أمام ثورة كبرى فِي التَّغيُّرات على مختلف المستويات توجب علينا الوقوف عندها، ولنبدأ أولاً بمفهومي القيمة والتَّغيُّر القيمي.

في مفهوم القيمة والتَّغيُّر القيمي

القيمة بمعنى أوليٍّ مُيسَّرٍ هي الثَّمن الذي يستحقه الشَّيء. ولأنَّ ثَمَّةَ أشياء لا تباع ولا تشترى، أَو لا يكون لها ثمنٌ بالمعنى المادي المعروف أَو النَّقدي تحديداً، تمَّ الانتقال بمفهوم القيمة من المعيار الحسِّي إِلَى المعيار التَّجريدي؛ أي تَمَّ تحويل الدَّراهم والدَّنانير إِلَى ما يمكن أن يقابلها بالمعيار المعنوي، فصارت القيمة تعني القَدْرَ الذي يستحقه هذا الأمر أَو ذاك. والقَدْرُ هذا تجريدٌ يتجسَّد بأشياء كثيرة تبدأ بهزِّ الرَّأس بإيماءةٍ خفيفةٍ دالَّةٍ على القبول أَو الرَّفض، وتمرُّ بابتسامة الرِّضا أَو ابتسامة الرَّفض، لتصل إِلَى النشوة الَّتي تشبه السُّكر أَو الرَّعشة الَّتي تزلزل الكيان، أَو الغضب الذي قَدْ يوصل المرء إِلَى ارتكاب جريمةٍ أَو عصيانٍ أَو غير ذلك.

بهذا المعنى لا شيء لا قيمة له، كلُّ شيءٍ له قيمة، والقيمة بمستوى أوليٍّ من التصنيف تنقسم إِلَى قيمةٍ نقديَّةٍ، وقيمةٍ معنويَّةٍ. القيمة النقديَّة تخصُّ كل ما يباع ويشترى، ولهذه القيمة فلسفتها ونواظمها وضوابطها، وهي بالمجمل جزءٌ من مباحث علم الاقتصاد. أما القسم الثَّاني وهو ما يخصُّ القيمة المعنوية فيندرج تحت إطارها كلُّ ما يستحقُّ التقدير وما يجب تقديره من دون أن يكون قابلاً للبيع والشِّراء مثل: الحب، الكره، الصدق، الكذب، الوفاء، الخيانة، البطولة، الشهامة، الكرامة... وغير ذلك.

في المستوى الثاني من التَّصنيف تنقسم القيمة المعنوية إِلَى ميادين انتسابها، فكان لدينا: قيمٌ جماليَّةٌ، قيمٌ أخلاقيَّةٌ، قيمٌ اجتماعيَّةٌ، قيمٌ سياسيَّةٌ، قيمٌ دينيَّة، قيمٌ روحيَّة... وغير ذلك. وهذه القيم جميعها تندرج تحت إطار البحث الفلسفي. ومما تجدر ملاحظته هنا هو أنَّ قيم الأشياء أَو السُّلوكات ترتقي في سلم السُّمو والرِّفعة تبعاً لمجموعةٍ من النقاط والعناصر المتكاملة، وأبرزها:

أولاً: عظم دور القيمة في حياة المجتمع والفرد أيضاً، ومن المؤَكَّد أنَّ هناك تبايناً في سلالم أولويات الأمم والشُّعوب والمجتمعات ومعاييرها في تقدير عظم دور هذه القيمة أَو تلك، ولذلك ليس من الضَّروري أن تكون القيمة العظمى أَو الَّتي تلعب الدَّور الأعظم في حياة المجتمع العربي هي ذاتها الَّتي الدَّور الأعظم في حياة المجتمع الإنچليزي أَو الفرنسي أَو الأرجنتيني... وهذا للأسف ما لا يدركه الكثيرون أَو لا يريدون إدراكه عندما يريدون تعميم تجربة شعبٍ ما على بقيَّة الشُّعوب.

ثانياً: المكانة الَّتي تحتلها القيمة في منظومة القيم من جهة، وفي سلَّم أولويات المجتمع والفرد، فلكلِّ مجتمعٍ أو أمَّةٍ ترتيبها الخاص لمنظومة القيم من جهة، وترتيبها الخاص لأولويات القيم على بعضها بعضاً. ولذلك أيضاً من الخطأ تعميم قيم مجتمع على مجتمع آخر بالطريقة ذاتها، ومن ذلك مثلاً أنَّ الشَّرف الذي يقف في مقدِّمة القيم في المجتمع العربي يقف في ذيل القيم في مجتمع آخر أَو مجتمعات أُخْرَى. وكذلك شأن الشَّهامة والكرامة وغيرها من القيم.

ثالثاً: أهميَّة الدور الذي تلعبه القيمة في حياة المجتمع، وما يمثله هذا الدَّور من كينونة المجتمع وبنيته وعناصر هويَّته... والحقيقة أنَّ المجتمع إنَّما يرتِّب

منظومته القيميَّة وسلَّم أولوياته القيميَّة على أساسٍ من أهميَّة الدَّور الذي تؤدِّيه هذه القيم، وما يمثله هذا الدَّور له.

رابعاً: فرادتها واستثنائيتها، فكلَّما كانت القيمة متفرِّدة واستثنائيَّة أكثر وصعب الاستغناء عنها أَو الاستعاضة بغيرها عنها ارتقت أكثر في سلم السُّمو والرِّفعة. وفي هذا ما يقودنا إِلَى ناحية أُخْرَى وهي أنَّ كثرة القيم المتشابه أَو الأشياء ذات القيم المتشابهة يقلِّل من سموِّ قيمتها، لأنَّ غياب أيٍّ منها يمكن تعويضه بسهوله، أمَّا القيم أَو الأشياء يندر أن يحل غيرها محلها أو يعوض غيابها فإنَّها تسمو أكثر بقيمتها.

خامساً: كونها مصدراً، أَو أكثر شمولاً لغيرها من القيم. فالقيم الَّتي تعرف بغيرها تستمدُّ قيمتها منها، أما القيم الَّتي لا تعرف إلا بذاتها فإنَّها أكثر رفعة من غيرها، وكذلك في مسألة الشُّمول فالقيم الَّتي تحتوي أَو تغني عن أكبر عددٍ من القيم تكون أكثر أهميَّة أَو أكثر رفعة من غيرها، والقيم الَّتي يضيق محتواها حَتَّى لا تتسع إلا لذاتها، ويصعب الاستعاضة بها عن غيرها تكون أقلَّ رفعةً من غيرها.

ولذلك كلِّه، على سبيل المثال، كانت قيمة الشَّهادة مثلاً أسمى القيم لأنَّها وصلت إِلَى حدِّ التَّضحية بكلِّ شيءٍ؛ بما لا يمكن أن يضحى بأكثر منه.

ولهذا أيضاً انتقلت قيمةُ كثيرٍ من المفاهيم من التَّقدير المعنوي إِلَى التَّقدير بالمفهوم ذاته، فصارت هذه المفاهيم ذاتها قيماً، ولذلك لم نعد نقول قيمة الكرامة عالية وإنَّما صارت الكرامة ذاتها قيمة، وكذلك غيرها من القيم.

وكذلك شأن الكائنات كلِّها تُقَدَّرُ قيمتها بما تحقِّقه من فائدةٍ ومنفعةٍ وأهميَّةٍ ما تلبيه من احتياجات الإنسان ورغباته... ولذلك ثَمَّةَ كائنات لا قيمة لها بالمطلق، ولكِنَّها في لحظةٍ ما وظرفٍ ما قَدْ تُبَاعُ أَو تُشْتَرَى بِمبلغٍ هائلٍ، أَو رُبَّما تتحوَّل ذاتها إِلَى قيمةٍ في ظرفٍ ما أَو حالةٍ ما، مثل الطوطم الذي قَدْ يكون حيواناً أَو نباتاً أَو جماداً فيصبح قيمةً ساميةً مقدسةً، وهذا ما كانت عليه كثيرٌ من الشُّعوب القديمة في تقديسها بعض الكائنات الحيَّة أَو الجامدة، وما زال هذا حال الهندوس حَتَّى يومنا هذا في تقديس البقر. ومثل ذلك أيضاً التراب الذي لا قيمة ماديَّة له في حالته العادية، ولكنَّهُ عندما يتحول إِلَى رمز، مثل تراب الوطن، فإنَّهُ يغدو قيمةً بذاته أكبر من أن تباع أَو تشترى، وقد ضرب لنا **رسول حمزاتوت** في داغستان بلدي أروع مثال على ذلك.

وثَمَّةَ كائنات قيمتها مبذولةٌ لكلِّ النَّاس؛ كالحمير والبغال والخيول والأبقار والخراف والدَّجاج وأضرابها وغيرها أيضاً من غير الحيوانات كالنباتات مثلاً...

وثَمَّةَ أُخْرَى قيمتها عاليةٌ جدًّا من الصَّعب شراؤها إلا على قلَّةٍ من الناس كبعض الحيوانات والجواهر الأحجار الكريمة والمعادن النَّفيسة... أمَّا الإنسان فلا قيمة ماديَّة له لأنَّ القيمة تقاس أَو تقدَّرُ بما تقدِّمه له الكائنات والأشياء من فائدةٍ ومتعةٍ ولذَّةٍ وسعادةٍ وتلبيةِ احتياجاتٍ ورغباتٍ... ولذلك كان ما يصدر عن الطَّبيعة أَو يوجد فيها يقدَّر تقديراً نقديًّا، و ما يصدر عن الإنسان بوصفه إنساناً، أَو كينونة متمايزة بالعقل عن سائر الكائنات هو الذي يقدَّر تقديراً معنويًّا، لأنَّ ما يصدر عن الإنسان لا يمكن أن يصدر عن غيره من الكائنات حَتَّى ولو تشابهت صورة السُّلوك الصادر عن الإنسان

والحيوان أَو تماثلت في النَّتيجة مثل إنقاذ الإنسان لغريق وإنقاذ الدولفين لغريق فالسُّلوكين متماثلين صورة ونتيجة ولكنَّنا مع ذلك نَصِفُ سلوك الإنسان بالشهامة ولا نصف سلوك الدولفين بالشهامة، وإذا وصفنا سلوك الدولفين أَو غيره من الحيوانات؛ كسلوك الكلب أَو الحصان... بما نصف به السلوك المشابهة للإنسان فإنما يكون الوصف وصفاً إسقاطيًّا لا وصفاً مفهوميًّا، ولذلك خلص الفلاسفة إِلَى اشتقاق قيمة جديدة أضافوها إِلَى عالم القيم اسمها الإنسانيَّة.

هذه القيم؛ الجماليَّة والأخلاقيَّة والسِّياسيَّة والدينيَّة... منها ما يتمتع بالثَّبات والمطلقيَّة، ومنها ما يتمتع بالثبات النِّسبي، ومنها ما هو عرضة للتغَيُّر والتَّبدُّل والتَّخلُّف والتَّطوُّر... وهذا الحكم في الثبات والتَّغيُّر ليس محصوراً بميدانٍ واحدٍ، وإنَّما هو منطبقٌ على قيم كلِّ الميادين، ففي كلِّ ميدان توجد قيمٌ ثابتةٌ، وقيمٌ ثابتةٌ ثباتاً نسبيًّا، وقيمٌ متغَيُّرةٌ تبعاً للظَّرف والحال والمرحلة...

الثَّبات والتَّغيُّر اللذان تتمتَّع بأحدهما القيم هو ثباتٌ أو تغَيُّر في المستوى المنطقي والماهوي. أي إنَّ القيم الَّتي تتمتع بالثبات والمطلقيَّة إنَّما تتمتع بهما تمتعاً منطقيًّا، ماهويًّا، فتظلُّ هذه القيم محافظةً على ذاتها وماهيتها عَبْرَ الزَّمان والمكان. وأكثر ما تكون هذه القيم في ميادين الأخلاق والدِّين، وليس ثَمَّةَ ما يمنع أن يكون منها ما هو موجود في مختلف الميادين الأُخْرى. ولكنَّ هذا الثَّبات والمطلقيَّة لهذا النَّمط من القيم ليس محصَّناً تحصُّن قوانين الطَّبيعة، فهي:

. من جهةٍ أولى موضع إجماع كلِّ النَّاس، أَو على الأقلِّ معظمهم لحفظ حقِّ الاستثناء. فما من أحدٍ نظريًّا يجادل في وجوب الصِّدق والأمانة والوفاء،

و في مفهوم أيٍ منها... ولكن في الوقت ذاته ثَمَّةَ من يجادل في سبب الصِّدق، والأمانة، والوفاء... وثَمَّةَ كثيرون يكذبون ويخدعون ويخونون...

. ومن جهة ثانية، منبثقة عن الأولى ومرتبطة بها، فإنَّ هذه القيم آمرة غير ملزمة، شأنها شأن ما نسميه الأوامر الأخلاقيَّة، أي إنَّها تأمرنا باتباع كذا وكذا، ولكِنَّها لا تستطيع إلزامنا أَو قسرنا على اتباعها.

. ومن جهةٍ ثالثةٍ هي عرضةٌ للتأثُّر بمتغَيُّرات الواقع والقيم الأُخْرى... أي إنَّها عرضةٌ لحمل تبعات مختلف أنواع التَّغيُّرات الَّتي تطال الواقع والقيم الأُخْرى، ولكِنَّها مع ذلك تظلُّ محافظةً على هويتها وماهيتها. أعني بذلك أنَّ الصِّدق مثلاً، وهو قيمةٌ مطلقةٌ، قَدْ يصبح بضاعةً نادرةً في مجتمعٍ ما، ولكن مع ذلك يظلُّ الصِّدق هو ذاته، ويظلُّ مطلباً أخلاقيًّا. وما يصح على الصِّدق من هذا الباب يصحُّ على القيم الأُخْرى الَّتي تتمتَّع بالثَّبات والمطلقيَّة.

هنا تجدر الإشارة إِلَى أنَّ القيم المطلقة مطلقة فوق الزَّمان والمكان، أي إنَّها هي ذاتها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، والتلازم بَيْنَ الزَّمان والمكان تلازم جوهريٌّ، صميميٌّ، أي لا توجد قيمٌ مطلقة فوق الزَّمان، وأُخْرَى فوق المكان، فإما أن تكون مطلقةً فوق الزَّمان والمكان معاً أَو لا تكون مطلقةً، لأنَّ ما هو ثابتٌ أَو مطلقٌ في إطار الزَّمان أَو المكان إنَّما هو ثابتٌ ثباتاً نسبيًّا، أي إنَّهُ عرضة للتغَيُّر بمعنى من المعاني، أي إنَّهُ نسبيٌّ وما هو نسبيٌّ ليس مطلقاً.

هذا ينقلنا مباشرةً إِلَى القيم المتمتعة بالثَّبات النِّسبيِّ. هذا النَّمط من القيم يتمتَّع بالثَّبات أَو بنوعٍ من الثَّبات، ولكنَّهُ منسوبٌ إِلَى محورٍ محدَّدٍ، أي مرتبطٍ به في ثباته، فإذا ما ارتبطت أَو قورنت هذه القيمة أَو تلك بغير ما

انتسبت إليه في ثباتها لم تكن هي ذاتها وإنَّما كانت لها هوية أُخْرَى مختلفة في دقائق صفاتها وخصائصها.

لدينا ثلاثة محاور ينسب إليها ثباتُ هذا النَّمط من القيم، وهذه المحاور هي الزَّمان، والمكان، والزَّمكان. أي إنَّ القيم الَّتي تتمتع بثباتٍ نسبيٍّ تكون نسبتها إمَّا إِلَى الزَّمان أَو إِلَى المكان أَو إِلَى الزَّمكان. وهذا يعني أنَّ هذه القيم قابلة للاختلاف من زمان إِلَى زمان في المكان ذاته، أَو من مكان إِلَى مكان في الزَّمان ذاته.

هذه القيم المتمتِّعة بالثَّبات النِّسبيِّ يمكن أن تكون قيماً جماليَّةً أَو أخلاقيَّةً أَو اجتماعيَّةً أَو دينيَّةً أَو سياسيَّةً... فمفهوم الشَّرف وقيمته في دمشق غير مفهوم الشَّرف وقيمته في موسكو أَو برلين أَو نيويورك... ومفهوم الكرم وقيمته عند العرب غير مفهوم الكرم وقيمته عند الإنچليز أَو الأمريكان... وهذا النَّمط من القيم خاضعٌ للتغيُّر في مختلف مستويات التَّغيُّر تبعاً للظروف والمعطيات والمتغَيُّرات الَّتي تطال المجتمع أَو الأمة في مختلف وجوه الحياة، ولكن مهما كان مدى التَّغيُّر الذي يطالها تظلُّ محافظةً على هويتها وماهيتها ضمن حدود ما نسبت إليه، فمفهوم الكرم ظلَّ عند العرب كما كان منذ مطالع الوجود العربي، أَو على الأقل منذ تكريس هذا المفهوم قيمةً عند العرب، ولكنَّهُ خضع للتغيُّر وفق الشُّروط والظُّروف الَّتي مرَّت أَو تمرُّ بها الأمَّة.

أما النَّمط الثَّالث من القيم، أي القيم القابلة للتغَيُّر فهي مندرجةٌ في كلِّ ميادين القيمة؛ الجماليَّة والأخلاقيَّة والدينيَّة...، وفي كلِّ الأزمنة، وفي كلِّ الأمكنة، والمكان دائماً مقترنٌ بالمجتمع أَو الأمَّة، وليس ثَمَّةَ مكانٌ تثبت فيه القيمة أَو تتغَيُّر من دون اقتران ذلك بالبشر. ولَعَلَّ أكثر ما يندرج تحت هذا

النَّمط من القيم كثيرٌ من القيم الاجتماعيَّة، ثُمَّ السياسيَّة، ثُمَّ بقية بعض قيم ميادين الجمال والأخلاق وقليل من غيرها من الميادين. ومن أبرز القيم المندرجة تحت هذا النَّمط قيم العلاقات الأسرية، والقرابيَّة، والعادات، والتقاليد، والأعراف...

إنَّ التَّغيُّر في هذا النَّمط من القيم جزءٌ من طبيعتها أَو ماهيتها، ولكن ذلك لا يعني أَنَّها ينبغي بالضرورة أن تتغَيَّر، ولا أنَّ تغَيُّرها هو الأحسن، ولا أنَّها تتغَيَّر إِلَى الأفضل دائماً. إنَّ قيام قوامها على التَّغيُّر أمر وظيفيٌّ مهمته تشكيل الجانب المرن في كينونة المجتمعات وحَتَّى الأفراد، هذا الجانب الذي يتيح مرونه التَّعامل مع المتغَيِّرات والتَّحديات والظُّروف الحرجة والظُّروف الجيدة... ويمكِّن المجتمع من ثَمَّ التَّغلب على الأزمات الَّتي تلمُّ به واحتوائها بالطريقة الأكثر مناسبة. هذه الطريقة الأكثر مناسبة قَدْ تكون تراجعاً، انسحاباً، انهزاماً، ارتكاساً، تخلفاً، وقد تكون مزيداً من النَّماء والتقدُّم والانتقال إِلَى الأفضل... كلُّ ذلك مرتهنٌ بجملة الظروف والمعطيات التاريخيَّة الَّتي يكون المجتمع أَو الأمة في حضرتها.

وفي المقابل فإنَّ القيم المتمتِّعة بالثَّبات والثَّبات النِّسبي إنَّما قام قوام كلٍّ منهما على ذلك أيضاً لأغراضٍ وظيفيَّةٍ، تتعلق أولاهما بالجنس البشري، وتتعلق ثانيتهما بالمجتمعات المختلفة وتحقيق التمايز بَيْنَ هذه المجتمعات والحفاظ على هويَّة كلٍّ منها.

إذن تغَيُّر القيم جزءٌ من سيرورة المجتمعات البشريَّة، وسيرورة الإنسان ذاته في حياته. والذي يؤدِّي إِلَى تغَيُّر القيم عواملُ مختلفةٌ وكثيرة جدًّا يصعب

ضبطها وتحديدها كما يصعب في الوقت ذاته التكهن الدَّقيق بالتَّغيُّر الذي يمكن أن تحدثه هذه العوامل.

التَّنبؤ العلميُّ أمرٌ واقعٌ، وهو احتماليٌّ لا إحصائيٌّ، وكثيراً ما يكون باحتماليات عالية الوثوقيَّة لأنَّهُ يقوم على مبادئ وأوليات يفترض فيها الاختبار والمعايرة، ولكن يبقى التنبؤ احتماليًّا في عالم الإنسان.

أما عوامل التَّغيُّر فعلى الرَّغْمِ من تعدُّدها واختلاف الباحثين في ترتيبها وتصنيفها وأنواعها فإنَّها يمكن أن تردَّ إِلَى محورٍ واحدٍ هو الجِدَّةُ في أي ميدان من الميادين، أي تردُّ إِلَى التَّغيُّر ذاته، فأيُّ تغَيُّر إيجابيٍّ أَو سلبيٍّ، تقدميٌّ أَو تراجعيٌّ... في أيِّ ميدان من ميادين الحياة والعلم والمعرفة سيقود إِلَى إحداث تغَيُّرٍ ما في القيم أَو بعضها أَو واحدة منها على الأقل. وقد يكون هذا التَّغيُّر قويًّا، وقد يكون طفيفاً، وقد يكون مرحليًّا وقد يستمر زمناً طويلاً، وقد يكون إيجابيًّا وقد يكون سلبيًّا. ولذلك يمكن القول، وهذه حقيقةٌ مقرَّرةٌ في علم التَّغيُّر، إنَّ القيم في تغَيُّر وتقلب في التَّغيُّر منذ وجد الإنسان إِلَى يومنا هذا، وإلى أن ينتهي وجود الإنسان على هذه الأرض.

فقد مرَّت البشريَّة بمراحل ومنعطفاتٍ كثيرةٍ، وحقَّقت وثباتٍ وطفراتٍ متميِّزةً في التَّقدُّم العلمي والتَّقاني، وكان لكلِّ ذلك آثارٌ واضحةٌ وبصماتٌ قويَّة في التَّغيُّرات القيميَّة في حياة المجتمعات البشريَّة، وربَّما لن يكون من الصَّعب تتبع ذلك.

وقد بات من الثَّابت أنَّ تغَيُّراتٍ قيميَّةً كثيرةً طرأت في حياة المجتمعات البشريَّة، ولكنَّ الثَّابت أيضاً أنَّ ثمَّةَ ثوابت قيميَّة تخصُّ كلَّ مجتمع لم يطرأ

عليها من التَّغيُّر إلا ما هو في حكم المهمل إحصائيًّا، وما يتعلق بشدَّةِ الظهور والاختفاء تبعاً لمكانة الأمة أَو المجتمع على السُّلَّم الحضاري، وهذا في حقيقة الأمر مرتبطٌ، كما أشرنا بنوعيَّة القيم وقابليَّة كلٍّ منها للتغَيُّر والتَّبدُّل ومدى قدرتها على المقاومة والثَّبات... ومدى ما تمثِّله من عناصر هويَّة المجتمع ومكوناته.

في معالم الثورة التقانية

ولكن كلَّ التَّغيُّرات الَّتي مرَّت بها القيم عبر تاريخ وجود الإنسان في كفَّة والتَّغيُّرات القادمة في كفَّةٍ أُخْرَى ترجح على الأولى بالتأكيد، ذلك أنَّنا إذا نظرنا نظرةً مترويةً إِلَى ما سبق من تغيرات في مختلف الميادين وقارناها بالتَّغيُّرات الَّتي حدثت في الربع الأخير من القرن العشرين خاصَّة، وخاصَّة منه السنوات العشر الأخيرة وحَتَّى الآن، وجدنا أنَّ الثَّورة التَّقانيَّة والمعرفيَّة والمعلوماتيَّة، وهي ثالوث متواشج الأواصر، الَّتي حدثت في هذه السَّنوات الأخيرة تفوق بقوَّتها وعنفوانها وأثرها ما حدث من تغيرات طيلة مراحل التاريخ مجتمعة.

ولم تكد سنوات العقد الأخير من القرن العشرين تلفظ أنفاسها حَتَّى تسارعت وتائر أخبار التَّطوُّرات العلميَّة تهيمن على الصَّفحات الأولى من مختلف وسائل الإعلام.

كانت في بداياتها أخبار تمرُّ مرور سابقاتها من أخبار الإنجازات العلميَّة الكبرى الَّتي تثير دهشةً كبيرةً لدى جماهير المتلقين، وتأخذ الحصَّة الأكبر من أحاديثهم وهمومهم، ولكِنَّ هذه الأخبار ما لبثت أن راحت تتزايد في قدرتها على الإدهاش تزايداً وصل أخيراً إِلَى حدٍّ صار من الصعب معه تصديق هذه

التطورات، والمصيبة الأكبر هي أنَّ هذه التَّطوُّرات وقائع، واقعة تحت الأسماع والأبصار، وليس محض تسريبات أخبار غير ممكنة التحقق أو المعاينة أو التجريب. كلُّ شيء خاضع للمعاينة والتجريب، وكلُّ شيء حقائق لا تقبل الدَّحض... وعلى الرَّغْمِ من ذلك كلِّه، وعلى الرَّغْمِ من يقين تحقُّق هذه الإنجازات، فإنَّ العقول تكاد تشكُّ في ذاتها لأنَّها عاجزة عن تصديق هذه الحقائق الَّتي تتمنع على الدحض والتشكيك.

إنَّ ما حدث منذ مطالع العقد الأخير من القرن العشرين ليس ثورة عاديَّة على الإطلاق، إنَّها ثورة تزداد اضطراماً وعنفواناً وتفجُّراً ازدياداً اضطراديًّا وفق متوالية هندسيَّة عقديَّة، فكلُّ سنة من السنوات الأولى فاقت سابقتها بأضعافٍ مضاعفة من الإنجازات في مختلف الميادين وعلى مختلف الأصعدة والمستويات، حَتَّى وصلنا إِلَى تضاعف الإنتاج العلمي والمعرفي والتقاني ضمن حدود ضيقة من الزمن غير المتوقع... لَقَد وصلنا منذ سنوات إِلَى مرحلة العجز عن متابعة ما يجري، لا نحن وإنَّما العالم كله يشعر بشللٍ ذهنيٍّ حيال التدفق المعلوماتي والتقاني والمعرفي...

إذا قلنا إنَّ الواقع صار حقًّا أكبر من حدود الخيال وأبعد من آفاقه، أكبر من قدرة العقل على التَّصديق... فمن الأرجح ألا نكون مبالغين في حكمنا.

محاور ثلاثة هي الَّتي قادت العالم في السَّنوات الأخيرة، وما زالت تقوده بثوراتها البركانيَّة المضطردة الثَّوران والغليان، وهي:

- الهندسة الإلكترونية.
- الهندسة المعلوماتيَّة.

. الهندسة الجينيَّة.

يمكن تسميتها بالثورات، ولكنَّ الثورات فورات تخمد، يمكن تسميتها بالبراكين ولكنَّ البراكين انفجارات تخمد أيضاً، يمكن تسميتها بالزلازل ولكنَّ الزلازل هزَّات ارتداديَّة مباغتة لا تدوم... وقد سُمِّيت بكلِّ ذلك، وَلكِنِّي أميل إِلَى تسميتها بالهندسات لأنَّها وصلت إِلَى حدِّ هندسة موضوعاتها هندسة جدَّ دقيقةٍ وصلت إِلَى حدِّ الإدهاش حقًّا.

إنَّ التفكير في استعراض منجزات هذه الهندسات ليس إلا تفاؤلاً خادعاً بالتأكيد، ولذلك نحن لن نفكر في استعراض هذه المنجزات، حسبنا خطوطها العريضة الَّتي رُبَّما صارت من المعارف الشائعة في يومنا هذا، أَو على الأقل في أطرها العامة الَّتي أريد لها أن تنشر وتذاع.

أولاً: الهندسة الإلكترونية

يرجع استخدام الحاسوب إِلَى السِّتينات من القرن العشرين، وترجع تطبيقاته الأولية إِلَى أوائل القرن العشرين، ولكنَّ الثورة الحقيقيَّة وبدء برنامج الهندسة الإلكترونية لم ينطلق إلا في أوائل التِّسعينات عندما صار الحاسوب مبذولاً للاستثمار التِّجاري، أي متاحاً للاستخدام الشَّخصي الذي فتح باب التَّنافس لتطوير إمكانات الرِّبح من هذه التَّقانة. فبدأ التَّفاعل التَّنافسي بَيْنَ مختلف أرباب هذه التقانة على تطوير مختلف مكونات الحاسوب وعناصره؛ وأيُّ تطورٍ في عنصرٍ أَو مكوِّنٍ من مكونات الحاسوب يفرض تطوُّراً في العناصر الأُخْرى بالضَّرورة، بدءاً من قطع تشغيله قطعةً قطعة، مروراً ببرامج التَّشغيل، وصولاً إِلَى برامج الاستثمار... كلُّ ذلك دخل في علاقة تفاعليَّة

تنافسيَّة ما زالت مستعرة الأوار. وحسبنا لمحاولة تخيل مدى التطور أن نعرف أنَّ أثرى أثرياء العالم هم من العاملين في هذه الحقول الثلاثة، علماً أنَّ معظمهم قَدْ بدأ من الصفر في أوائل أَو أواسط التِّسعينات على الأبعد.

هذا الحاسوب الشَّخصي، أي المسموح به لعامة الناس وعوامهم، اختصر عشرات الأجهزة منذ أواسط تسعينات القرن الماضي، فهو: جهاز تنضيد، وإخراج، ومونتاج، ورسم، وطباعة، ونسخ، ومذياع، وتلفزيون، ومسجلة، وفيديو، وهاتف، وناسوخ، ولاقط محطات فضائية، وآلة تصوير، وبريد إلكتروني، وهاتف مرئي، والى جانب ذلك هو تقويم، وساعة، ومنبه أكثر من متميز...

وإلى جانب ذلك كله هناك البرمجيات المذهلة في حلِّ مختلف المعضلات، وتيسير الأمور والمشكلات، واختصار الجهد والوقت والمسافات في مختلف الميادين أَو رُبَّما في أي ميدان يشكل قاسماً مشتركاً بَيْنَ مجموعة غير قليلة من الأشخاص، ناهيك عن البرمجيات الخاصَّة أَو الفردية الَّتي تحقق أغراضاً محددة... فصار الحاسوب بذلك أيضاً وسكرتيراً أَو خادماً يقدِّم لك الخدمات الَّتي تريدها من دون نسيان أَو ملل أَو ضجر أَو كلل...!!

ويتوافق مع ذلك التطور المذهل في تقانات الحاسوب ذاته ؛ المعالج، الأقراص الصلبة، الأقراص الليزرية، الأقراص المدمجة، والبطاقات، والرقاقات الإلكترونية الَّتي تستخدم في الحاسبات المختصَّة الَّتي وصلت إِلَى حدود الإدهاش في الفاعلية والحجم والسعة، وهي

الَّتي صارت تشكل أجهزة وحدها منها على سبيل المثال الهاتف الخليوي، ومنها سابرات الفضاء، ومنها سابرات أجزاء الأجزاء من الخلايا والذرات...!!

هذه الثورة أَو الهندسة تسعى جاهدة منذ زمن إِلَى حدِّ الوصول إِلَى البرمجة الحيويَّة، أي أن يبرمج البرنامج ذاته، ويطور هو ذاته ذاته، ويستفيد مما يمكن أن يستفيد منه من شقيقاته البرمجية الأُخْرى، والتقانية الحاسوبيَّة، وقد قطع العلماء شوطاً لا بأس في هذا المجال، وثَمَّةَ الكثير من هذا التطبيق في الحواسيب الشخصيَّة، وفي البرامج الاستثمارية المتاحة للناس كافَّة... ولكنَّ البرمجة الحيويَّة أخطر من ذلك بكثير... سيصل الإنسان إِلَى أن يكون لعبة بَيْنَ يدي الحاسوب؛ الحاسوب هو الذي يأمره، ويشغِّله، ويقوده، ويفكِّر عنه، ويتحكَّم به، ويفرض عليه بالإكراه ما يريد، ويمنعه من الدخول أَو الخروج إن وجد في دخوله أَو خروجه خطراً عليه؛ عليه أي على الشخص أَو البرنامج ذاته... وربَّما يعاقبه إن لم يمتثل لأمره... وربَّما يقتله... وقد صورت لنا مسلسلات أَو أفلام الخيال العلمي الكثير من هذه التخيلات... إنَّها خيال علمي، نعم، ولكن ما الذي يفصلها عن الواقع؟

هذه التقانات والبرمجيات استفيد منها في القطاعات الأُخْرى؛ الصناعية، التجارية، الزراعية، العلمية، المعرفية، الإعلاميَّة.... وغيرها، مما أدى وسيؤدي إِلَى ثورات هائلة في مختلف هذه القطاعات، ولَعَلَّ أكثرها استفادة ما سمي أَو سميناه الهندسة المعلوماتيَّة والهندسة الجينيَّة.

ثانياً: الهندسة المعلوماتيَّة

الهندسة المعلوماتية هي صناعة المعلومة ونقلها، وتتمثل هذه الهندسة أكثر ما تتمثل في الاتصالات والإعلام. وهما جانبان متكاملان يكادان يكونان وجهين لعملة واحدة.

كان الناسوخ والهاتف المرئي آخر منجزات تقانة الاتصالات التقليديَّة، وعلى نحوٍ شبه مفاجئٍ أصبح البريد الإلكتروني متاحاً لكلِّ الناس، وترافق معه إِلَى حدٍّ ما الدُّخول إِلَى شبكة المعلومات الدوليَّة (الإنترنت)، وتطورت هذه الشبكة تطوراً مذهلاً خلال أزمنة قياسيَّة فتزايدت المواقع تزايداً خياليًّا حَتَّى صارت الآن نحو أربعمئة مليار موقع، أي بما يعادل سبعاً وستين موقعاً لكل نسمة على سطح الأرض. وهذا ما أزعج بالتأكيد الولايات المتحدة الَّتي فقدت سيطرتها على هذه الشَّبكة وعلى التحكم بالمعلومات الَّتي تُبَثُّ عليها مما دفعها إِلَى تخصيص ميزانية هائلة لتطوير شبكة جديدة تستطيع الولايات المتحدة وحدها التحكم بها، وقد نجحت في ذلك مؤخراً... ولا ندري متى يتمُّ تدمير الشبكة القديمة ليصبح العالم كلَّه تحت رحمة المعلومة الَّتي تصوغها الإدارة الأمريكية.

وإلى جانب ذلك ولد البثُّ الفضائي الذي صار يغطي أيَّ خبرٍ في أيِّ مكانٍ من العالم في اللحظة الَّتي يحدث فيها، ومع هذا البث الفضائي الهاتف الخليوي عابر القارات الذي يستخدمه صاحبه من أي مكان في العالم وربَّما حَتَّى القمر؛ استقبالاً وإرسالاً...

بالبث الفضائي وشبكة المعلومات الدوليَّة لم يعد هناك أسرار لمن يريد أن يعرف أيَّ سرٍّ، ولم يعد هناك خبرٌ يمكن إخفاؤه، ولا معرفة بعيدة عن

المتلقي... ولكن رُبَّما من الصَّعب على أيٍّ واحدٍ أن يقول ما يريد... بإمكانك أن تعرف أيَّ شيء أَو كلَّ شيء، ولكن ليس بإمكانك أن ترفض شيئاً أَو تعترض على شيءٍ أَو تصحِّحَ خطأً في العرض أَو الفهم... ستكون مثل العصفور المحبوس في قفص؛ يرى هواء الحرية ولكنَّهُ لا يستطيع أن يستنشقه، فتنحبس حرقته في سقف حنجرته، وتتيبس لهاته وتنتفخ آهاته!!

ثالثاً: الهندسة الجينيَّة

بدأ العمل على اكتشاف الخارطة الوراثيَّة للإنسان منذ نحو ربع القرن، وكان من المتوقع ألا يكتمل اكتشافها قبل عام ٢٠٠٧ أَو ٢٠١٠م، ولكن فضائل الحاسوب وبصماته كانت كبيرةً على تسريع الفراغ من هذه الخريطة الَّتي تكاد تكون اكتملت تماماً الآن.

هذا الكلام في ظاهره أمرٌ عاديٌّ، ولكنَّهُ في حقيقة الأمر أخطر من القنبلة الذريَّة، فاكتشاف هذه الخريطة هو مثلاً اكتشاف كلِّ أنواع أسلحة الدَّمار الشَّامل... ورُبَّما البناء الشامل...

في سياق اكتشاف الخارطة الوراثية تَمَّت اكتشافات كثيرة رُبَّما كان من أخطرها ما سمي بالاستنساخ الذي تمَّ نجاحه نظريًّا، والأخطر منه هو التفكير فيما بعده قبل تمام نجاحه عمليًّا، حَتَّى كتب من كتب متسائلاً عما بعد الاستنساخ، وكان جواب بعضهم: طباعة الأعضاء البشرية هي الخطوة التاليَّة على الاستنساخ. ولا عجب إذ إنَّ أول ترويج للاستنساخ أَو توظيفه كان تحت شعار إنتاج قطع غيار للإنسان؛ كِلية، كبد، قلب، طحال، إصبع، ذراع... وهلم جرًّا... إذن ما الذي يمنع من تطوير هذا العلم ليصبح إنتاج أعضاء الإنسان إنتاجاً مطبعيًّا، مثل الكتب أَو المجلات؟!

صحيحٌ أنَّ علماء الأديان كلها حرموا الاستنساخ، ومعظم الدول سنَّت تشريعات تمنعه... إلا أنَّ العلماء ومن يقف وراء العلماء لم يأبهوا لأحدٍ أبداً... الإبداع نمطٌ من الجنون والتفكير الإبداعي مغامرةٌ مجنونةٌ.. ولا يمكن تعقيل المجنون وخاصَّة إذا أعجبه جنونه.

لو كان الاستنساخ محض إنجازٍ علميٍّ لأمكن تجاهله وتجاوزه، ولكنَّهُ أبعد من ذلك بكثير، إنَّهُ أحد مفاتيح القضاء على الإنسان وإلغائه لا إنتاجه كما هو ظاهر الأمر، سيتم إنتاج بشرٍ تنعدم فيهم في المستوى الأول علاقات القربى؛ لا وجود لمفهوم العم أَو الخال في ذهنه وواقعه، لأنَّهُ لا وجود لمفهوم الأب أَو الأم في واقعه وحقيقته وذهنه، وستتلاشى لذلك الكثير من القيم الإنسانيَّة؛ فانعدام مفهوم الأم أَو الأب أَو رُبَّما بل كليهما من الواقع ومن ثَمَّ من اللغة ومن ثمَّ من القيم سيولد فراغاً هائلاً وهوة يتعذر ردمها في منظومة القيم، فمن استنسخ من ذاته شخصاً هو ذاته هل يجوز أن يكون أب ذاته أَو أمَّ ذاته؟ ولنا أن نتخيل بعد ذلك ما الذي يمكن أن يحدث من تغيرات قيميَّة في علاقات القربي والزواج والحلال والحرام والتواصل الاجتماعي...

حسناً سنفترض أنَّ ذلك لن يتم، أي إنَّ الاستنساخ سيلجم ولن يقوم بهذه التخليقات الافتراضيَّة. هل يعني ذلك أنَّ هذه النَّتائج أَو التَّغيُّرات القيميَّة لن تكون موجودة؟

المشكلة أنَّها موجودة ولا تنتظر افتراضنا، وهي في طريقها إِلَى الزِّيادة من دون الاستنساخ، فأطفال الأنابيب، وبنوك النطاف والبويضات ظاهرةٌ موجودةٌ، وهي إن لم تكن رائجة فهي في طريقها إِلَى الرَّواج والانتشار في العالم، ونتائجها لا تختلف كثيراً عن نتائج الاستنساخ.

إذن نحن أمام تغيُّرات كثيرة على مختلف المستويات، وكلُّ تغيُّر يؤدِّي إِلَى تغير في القيم. والتَّغيُّر الذي يطرأ على القيم مرتبط بخطورة التَّغيُّر الطارئ في المعطيات الأُخْرى وقوَّته، وكلما كانت التَّغيُّرات والتهديدات الَّتي يتعرض لها المجتمع أَو الأمة أكثر خطورة كانت التَّغيُّرات الَّتي تطرأ على القيم أكثر خطورة، وكان من اليسير التخلي عن قيم أساسيَّة لصالح قيم أُخْرَى أكثر أساسيَّة وأهميَّة. فما هي آفاق هذه التَّغيُّرات القيميَّة؟

آفاق التَّغيُّر القيمي

في الحقيقة، وكما أشرنا بدايةً، نحن لسنا أمام حقائق يمكن تقريرها تقريراً قطعيًّا، ولكننا نتنبأ بها استناداً إِلَى قوانين التَّغيُّر الاجتماعي والقيمي والحضاري، واستناداً إِلَى مبادئ وأوليات في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي.

في أواخر السَّبعينات من القرن العشرين نشر **إلفان توفلر** كتابه صدمة المستقبل الذي أحدث هزَّة زلزاليَّة في عالم الفكر والثقافة، وكان تنبؤاً بالثَّورات التَّقانيَّة سالفة الذِّكر وتمهيداً لها في الوقت ذاته. وقد تَخيَّل **توفلر** في هذا الكتاب ما سيكون عليه المجتمع البشري أَو المجتمعات البشرية بسبب تعاظم التَّطور العمليِّ، فخرج علينا باصطلاح الحضارة الورقيَّة؛ حضارة المستقبل حضارة ورقيَّة، كلُّ شيءٍ من ورق: الزَّوج، الزوجة، الأولاد، الأصدقاء، الأقرباء، العمل، الطعام، الشراب، اللباس، السيارة... كلُّ شيءٍ من ورق.

نعم كلُّ شيءٍ من ورق، ولكن ليس بالمعنى السَّطحي للكلمة، وإنَّما بالمعنى الدلالي، فالورق يستخدم مرَّةً واحدةً، وكذلك كلُّ شيء؛ يستخدم مرَّة واحدةً؛ لن يضطر المرء لغسل قميصه أَو بنطاله، ولن يكون مضطراً لكيِّه لأنَّهُ

لن يلبسه مرَّةً ثانيةً، وكذلك أطباق الطَّعام والشَّراب لن يستخدمها مرَّة ثانية، ولن يكون للإنسان بيتٌ يملكه لأنَّهُ لن يستقرَّ في عمله، سينتقل من عمل إِلَى عمل ومن مكان إِلَى مكان حسبما تقتضيه مصلحته أَو مصلحة العمل، ولذلك سيكون أصدقاؤه أصدقاء مرحليين مرتبطين بالمكان الذي يعمل فيه اليوم وليس في الأمس ولا غداً، ولن يستطيع الالتزام بزوجة والمرأة لن تستطيع الالتزام بزوج لأنَّ لكلٍّ منهما عمله ومصالحه الَّتي لن تكون متوافقة بالضرورة، ولذلك لن يكون هناك أولاد يلتزم المرء بهم ستكون هناك مؤسَّسات خاصَّة...

هذه معالم مجتمع المستقبل وقيمه الَّتي رسمها **توفلر** وتوقعها، وقد تحقَّق الكثير منها، والكثير جدًّا، فهل ستكتمل هذه النبوؤات مع عام ٢٠٢٥م، العام الذي حدده أَو توقعه **توفلر** عاماً فاصلاً بَيْنَ العالم الجديد والعالم القديم، بَيْنَ المجتمعات الَّتي ستنخرط مجتمع المستقبل والمجتمعات الَّتي سيكون مصيرها الاندثار وربَّما الزوال إذا لم تواكب مجتمعات المستقبل؟

المؤشِّرات تقول إنَّ الأمور تسير نظريًّا في هذا الطريق، بغضِّ النَّظر عما إذا كان ذلك بإرادة مريد أَو مخطط أَو كان بفعل الثَّورة التَّقانيَّة ذاتها والمتغيرات الَّتي تفرضها وترافقها، ومن ثَمَّ بغضِّ النظر أيضاً عن وجوب تحققها أم لا.

على أنَّ ما تجدر الإشارة إليه هنا أمران على الأقل هما:

أولهما: أنَّ التَّغيُّر القيمي عامَّة لا يتمُّ على نحوٍ مباشرٍ أَو ملموسٍ لمساً مباشراً، وإنَّما يتمُّ بتدرج بطيءٍ يمكن أن يُدْرَكَ بعد سنوات رُبَّما تكون غير قليلةٍ، وفي أثناء هذه السَّنوات غير القليلة غالباً تأخذ عمليَّة التَّغيُّر في أكل القيمة أَو القيم رويداً رويداً، أَو تغنيها رويداً رويداً.

ثانيهما: أنَّ التَّغيُّر إذا كان باتجاه الإغناء والتعزيز، أي في حال كون المجتمع أَو الأمة سائراً باتجاه النَّماء والتَّقدُّم والتَّطور والقوَّة والتَّمدُّن، فإنَّ آليات التَّغيُّر القيمي تعمل بأفق منفتحٍ غير متخوِّفٍ ينعكس على كلِّ القيم معاً من ناحية الاغتناء والتعزيز وتوليد قيم جديدة لم تكن موجودة. أمَّا إذا كانت الظروف ضاغطة باتجاه إحداث تغيُّرٍ تراجعيٍّ أَو سلبيٍّ في القيم فإنَّ آليات الغير القيم تأخذ بالتَّشنُّج والانقباض وتعمل على إغلاق دائرة التَّغيُّر قَدْرَ الإمكان، وهذا ما يفسِّر تمسُّك المجتمع أحياناً بقيمٍ باليةٍ أَو سطحيَّةٍ، ذلك أنَّ التشنُّج الذي أصاب آليات التَّغيُّر يجعل المجتمع حساساً ضدَّ تقبل أي تغيير. ولكن مع ذلك فإنَّ التَّغيُّر يقع لأنَّ استمرار الضغوط يدفع بآليات التَّغيُّر إِلَى التخلي رويداً رويداً عما يمكن الاستغناء عنه من مقومات بعض القيم، وبعض القيم أحياناً مقابل الحفاظ على قيم أكثر أهميَّة وأساسيَّة ليصل في مرحلة من المراحل إِلَى عدم إمكان التخلي عن شيء وربَّما هنا يحدث الانفجار... الثورة.

بهذه الآلية تتجدد دورة حياة المجتمعات والأمم، هذه الدورة الَّتي تستغرق مئات السنين غير القليلة ما بَيْنَ الانفجار والانطلاق والعودة إِلَى الانفجار من جديد.

إذن تغير القيم ليس ردود أفعال مباشرة وإنَّما هو ردود أفعال بعيدة الترجيع والمدى تشبه إِلَى حدٍّ ما تفجُّر ينبوعٍ صغيرٍ يبدأ بشقِّ طريقه في الرِّمال؛ تتسرب كثيرٌ من المياه، ويتغير المسار غير مرَّة... ولكنَّهُ بعد زمنٍ غير قليلٍ يكون قَدْ صار نهراً... بهذه الآلية يكون التَّغيُّر القيمي.

والسُّؤال الآن: ما التَّغيُّرت الَّتي حَدَثَت وما التَّغيُّرات الَّتي يتوقع حدوثها؟

كثيرٌ من التَّغيُّرات حدثت ورُبَّما من دون أن ينتبه إليها كثيرون أَو من دون أن يريد الانتباه لها كثيرون، ومعظمها في ظاهرها أمورٌ جميلةٌ جليلةٌ تدفعنا لنحني هاماتنا احتراماً لما قدمته التَّقانة لنا من خدمات ومُيَسِّرَات للحياة... والأمر في حقيقته خلاف ذلك إِلَى حدٍّ كبير، ولكن ليس بالإطلاق.

قبل الحديث عن هذه التَّغيُّرات ينبغي ألا يُظنَّ أَنِّي ضدَّ التطور التقاني العلمي، أَو أَنِّي ضد إنجازات العلم، وكذلك ينبغي ألا يظن أَنِّي أدعو إِلَى مثل ذلك أبداً، وإنَّما غاية البحث هي التنبيه إِلَى مخاطر تنجم عن هذا التطور، يمكن أن تنجم عن غيره، والدعوة إِلَى البحث والتفكير لتلافي هذه المخاطر قدر الإمكان لأنَّ تلافيها بالإطلاق أمر متعذِّرٌ، والعمل على تحويل هذا التَّطور التَّقاني والعلمي إِلَى مفيد قدر الإمكان.

أوَّل هذه التَّغيُّرات ظهوراً ورُبَّما أبرزها هي الَّتي طالت القيم الاجتماعيّة، ووفق مستويات متعدِّدة. فبقدْرِ ما يسَّرت وسائلُ الاتصال التَّقارب والتَّواصل بَيْنَ البشر بَيْنَ قطبي الأرض كان هذا التَّقارب تباعداً بَيْنَ البشر؛ لَقَد صار من اليسير التَّواصل مع الأصدقاء وغير الأصدقاء على بعدهم عنا، وبتكاليف زهيدةٍ، ولكن في الوقت ذاته يسَّرت هذه الوسائل عدم اللقاء بَيْنَ الأصدقاء والأقرباء القريبين من بعضهم في المكان، بل كانت عاملاً مؤدِّياً إِلَى ذلك.

هذا الكلام لا بأس فيه حَتَّى الآن، وقد لا يكون مشكلةً في المستوى العملي، ولكن انعكاسات ذلك أبعد بكثيرٍ مما نتخيَّل، لأنَّ المسألة ليست مسألة لقاءٍ وإنَّما هي مسألةُ واجبات اجتماعيَّة، أي واجبات قيمية بَيْنَ أبناء المجتمع الصَّغير والكبير تبدأ من اللقاء الودِّي وما يقدِّمه هذا اللقاء من راحة

نفسيَّة، وتفريغ شحنات انفعاليَّة وعاطفيَّة، وتصل إِلَى الواجبات في المناسبات؛ الأفراح والأحزان، وقد وصلنا في مجتمعنا، ومجتمعات أُخْرَى الآن، إِلَى حدِّ التَّخلِّي عن هذه الواجبات الاجتماعيَّة والاستعاضة عنها برسالة إلكترونيَّة من هاتف أَو حاسوب تختصر كلَّ المعطيات وتختزلها ببضع كلمات تقول:

. تعازينا القلبيَّة.

. زواجٌ مباركٌ وسعيد.

. شفاءٌ عاجل.

. على أمل اللقاء... فلان.

هذا التَّغيُّر خطير ولا ينبغي أن ينظر إليه بسطحية لا ترى منها إلا توفير الوقت والجهد وربَّما النَّقد، واستحضر هنا شاهداً من مرايا **ياسر العظمة** الذي يصوِّر عزاءً على الإنترنت تجلس فيه أسرة الفقيد أمام شاشة الحاسوب، والمعزُّون يطلُّون من أمام حواسيبهم أيضاً ويقولون على تتالي الظهور: عظم الله أجركم. وتقف أسرة الفقيد لكلِّ معزٍّ يطلُّ على الشَّاشة وتقول: شَكَرَ الله سعيكم.

المشهد طريفٌ، ومضحكٌ، ولكنَّهُ خطوةٌ على طريق تشييء الإنسان، أي جعله شيئاً لا إنساناً، أي تجريدة من مقومات إنسانيَّته وتحويله إِلَى شيءٍ مثله مثل كيس البطاطا، أَو إطار السيارة... أَو الحاسوب... نعم الحاسوب، لأنَّ الحاسوب الآن بإمكانه برمجيًّا أن يقوم بتأدية واجباتك عنك؛ يقدِّم العزاء، يقدِّم التهاني، يدفع فواتير الهاتف، الكهرباء، الماء... يفكِّر عنك في مستويات محددة.

أن يفكِّر الحاسوب عنك أمرٌ لا يمكن أن نقبله أَو نصدقه، ولكنَّهُ هو الذي صارَ واقعاً من دون أن ندري. ولنلاحظ كيف تمَّ ذلك في ميدانٍ واحدٍ على سبيل المثال هو الهاتف.

كان الواحد منا حَتَّى أوائل الثَّمانيات يحفظ عشرات ورُبَّما مئات أرقام الهواتف الَّتي تلزمه أَو يتعامل معها من دون أن يحتاج إِلَى إخراج دليل الهاتف من جيبه، لَقَد كان الإنسان مضطراً لذلك، فتقانات الطباعة وخدمات أدلَّة الهاتف لم تكن ميسَّرَةً إِلَى الحدِّ الذي يجلعها متوافرةٍ بسهولةٍ دائماً. وبعد قليلٍ تيسرت أمور الطباعة وكثرت أنواع أدلة الهاتف الصغيرة والوسط والكبيرة، وصارت توزع مجاناً، وهدايا... فأزاح الإنسان جزءاً من عبء حفظ الأرقام ليلقيه على هذه الأوراق الصغيرة. ومع ظهور الهاتف الخليوي حدثت نقلةٌ هائلةٌ إذ حَمَلَ هذا الهاتف كلَّ أعباء الأرقام وخصائص الاتصال وقدراته ولم يبق على حامل الهاتف إلا أن ينطق بالاسم الذي يريد أن يهتف له...

إنجازٌ جميلٌ وبديعٌ أيضاً، ولكنَّهُ عَطَّلَ أَو شلَّ جانباً من قدرات الدِّماغ فلم يعد أحدنا يحفظ أحياناً حَتَّى رقم هاتف بيته... أي إنَّهُ نظريًّا أراح ذاكرته من عبءٍ ولكنَّهُ في الوقت ذاته قلَّل من قدرة ذاكرته على العمل والتذكر، لأنَّ الذاكرة كالنار كُلَّما زدت حملها تأججت أكثر.

إذن نحن بحاجة إِلَى إشغال ملكة التذكُّر بشيءٍ آخر، فما هو هذا الشيء؟

سندخل هنا في معمعة ثورة المعلومات؛ كنا نقرأ الجرائد والمجلات والكتب لنتابع الأخبار ونحصل على المعلومات والمعارف والأفكار... أمَّا الآن فإنَّ البرامج الإخبارية، والندوات التلفزيونية تقدِّم لنا كلَّ المعلومات على طبق

من ذهب، وإذا أردت معلومةً ما عليك إلا ضغط زرين على لوحة مفاتيح الحاسوب وكتابة المعلومة الَّتي تريد معرفتها وستجد كمًّا هائلاً من الشروح التفصيلات لهذه المعلومة في ثانية أَو ثواني أَو دقائق قليلة سيَّان أكان ذلك من شبكة المعلومات أَو من قرصٍ مدمجٍ، أَو من الحاسوب ذاته إن كان ما يخص عملك موجوداً عليه.

هذا أدى إِلَى اختصار الوقت من جهة، ولكنَّهُ قَتَلَ الوقت من جهةٍ ثانيةٍ بمجالسة الحاسوب أَو التلفاز الذي يقدِّم لك نظريًّا كلَّ شيءٍ، وفرض عليك الاتكال عليه لما يوفره لك من جودة وجهد ووقت، ونظراً لما يرافق التوصل مع الحاسوب والفضائيات من متعة المتابعة والمعلومة ومغريات التواصل معهما صار الحاسوب أَو المحطات الفضائيَّة هم الأهل والنسب، هم الأصدقاء الذين لا يوجد بينك وبينهم أيُّ حوار سوى التلقي، أي إنَّ الصَّداقة أَو قيمة الصَّداقة تغيَّرت، صار الأصدقاء قطعاً إلكترونية وبلاستيكية وكرتونيَّة، ويتواشج هذا التَّغيُّر مع ما سبقت الإشارة إليه من انحسار التواصل الاجتماعي وخسران ما يقدمه هذا التواصل الحي من فوائد، وما يعنيه من دلالات.

لَقَد قاد هذا التَّدفُّق المعلوماتي والمعرفي أيضاً إلى إحباط القدرات الإبداعيَّة والمواهب وتكبيلها، فما البحث الذي يمكن أن يكتبه الباحث أَو المفكر أَو المبدع وسط هذا التدفق المذهل لمختلف ميادين المعارف، والمعلومات، والحوارات والنِّقاشات والصِّدامات والمواجهات الفكريَّة والنَّقديَّة الَّتي رُبَّما لا تترك شاردةً ولا واردةً إلا وتغنيها من مختلف وجهات النَّظر أَو على الأقل من كثيرٍ من وجهات النَّظر؟ وما القصة أَو الرواية الَّتي يمكن أن يكتبها

المبدع أمام هذا التدفق في الأفلام والمسلسلات على مئات الفضائيات مع محدودية كتاب هذه الأعمال والاحتكار الذي تقوم عليه؟ ناهيك بعد ذلك عن البرامج الحاسوبيَّة الَّتي صارت تؤلِّف الألحان الموسيقيَّة، وتكتب القصص وترسم... إذن ستتحول القدرات الإبداعيَّة إِلَى الاستثمار في الإبداع الاستهلاكي، أي توظيف القدرات الإبداعيَّة فيما يتطلبه سوق الاستهلاك والاستثمار... ورُبَّما لا أكثر.

الإحباط هنا ناجمٌ في الدرجة الأولى عن خلو ساحة القراء من القراء لا عن عجز المبدعين أَو المفكرين فأعظم الكتب لا يقرؤها الآن أكثر من آلاف قليلة، بَيْنَما الفيلم أَو المسلسل أَو البرنامج الثقافي أَو الفكري... يتابعه عشرات الملايينِ...

هذا يقودنا إِلَى أثر آخر هو التحكم بالذائقة الجماليَّة من قبل مهندسي الحاسوب ومهندسو الإعلام المرئي المتمثل بالفضائيات وكلاهما يتسابق لا على فائدة المتلقي وإنَّما على كسبه بأي طريقة حَتَّى ولو كانت على حساب الأخلاق وكل القيم الإيجابيَّة في مختلف الميادين... بل رُبَّما كان نسف الأخلاق والقيم الإيجابيَّة عامَّة غاية من غايات بعض الفضائيات ومواقع الإنترنت...

مع افتراض حسن النية والتنافس التجاري المحض نجد أنفسنا مذهولين من هذا التَّسابق الفاضح بَيْنَ الفضائيات على الأقل ومواقع الإنترنت عامة على عرض البذاءات والتَّقليعات السخيفة الَّتي سماها بعضهم (كبريهات على الهواء)... وكيف حولوا الغناء من إرضاء حاجة جماليَّة راقية عند الإنسان إِلَى (فياچرا) مثيرة للشَّبقيَّة والشَّهوانيَّة، وصارت الحاجة الجماليَّة هي كل ما يثير

الشَّبق والشَّهوانيَّة، وتلاشت القيمة الجماليَّة بوصفها حاجةً فكريَّةً روحيَّةً، وهي إن لم تَزُل أَو تتلاش تماماً فلا يُستبعد أن تكون في طريقها إِلَى الزوال، والمؤشِّرات معظمها تقود إِلَى هذا التنبؤ. ومما يؤكد هذه النبوءة هو تراجع معظم الفنون وتقهقرها في مستويات أدائها وأشكالها ومضامينها وانحسارها لصالح الفنون بمفاهيمها المسخيَّة الجديدة الَّتي تتبناها مختلف وسائل الاتصال والإعلام، وسيطرة هذه الفنون بهذه المفاهيم المسخيَّة المشوَّهة على عقول الناشئة واقتناعهم بأَنَّها هي الفنون وأنَّ مقوماتها هي مقومات الفن!

رُبَّما يبدو ذلك تشاؤماً، ولكن أليس الواقع الذي نعيشه ذاته هو الشاهد والدليل على ذلك؟ وإن لم يكن في الواقع الدليل الدامغ على ذلك ألا ينطوي الواقع على الممهدات المباشرة للوصول إِلَى ذلك؟

سيتواشج مع هذه التَّغيُّرات القيمية تغير آخر جدٌّ خطير وهو تزايد حجم البطالة على الصعيد العالمي بسبب تزايد استخدام التقانة في الصناعة والزراعة.

عرفت البشرية البطالة مفهوما ودلالة وواقعاً مع دخول الآلة إِلَى العمل وحلولها محلَّ الأيدي البشريَّة. كان ذلك نصراً للإنسانيَّة من جهة، ومفتاح أزمات لم تكن معروفة من قبل. ومنذ دخول الآلة إِلَى يومنا هذا لم تبرأ المجتمعات البشريَّة عامَّة من هذه المشكلة، بل إنَّ هذه المشكلة ظلت في تصاعد خفيف نسبيًّا من عام إِلَى عام بسبب تزايد تطوير الآلات الصِّناعيَّة، ولذلك مرَّت البشريَّة أَو المجتمعات الصناعيَّة الكبرى على الأقل في أزمات كبرى، ثُمَّ صارت تمرُّ بأزمات بطالة دوريَّة، وتنوعت أشكال هذه الأزمة،

ولكِنَّهـا علـى أيٍّ حـالٍ ظلـت مرافقـة لمختلـف المجتمعـات البشـريَّة في القـرن والعشرين، وأخذت في الانتشار حَتَّى عمَّت كلَّ المجتمعات أَو الدول.

البطالـة حَتَّى الآن مقبولـة نسبيًّا، ولكِنَّهـا وفـق التنبـؤات العلميَّـة لتطـور استخدام التقانـة لـن تظل كذلك. فظاهرة (المصانع الَّتي لا تمسها الأيدي) بدأت بالانتشار في العقد الأخير من القرن العشرين، وبفضل إدخال الهندسة الإلكترونيـة إِلَى الـتحكم في الآلات بـدأت ظـاهرة (المصـانع الَّـتي لا تمسـها الأيدي) بالتزايد فصارت الكثير من المصانع اليوم تفخر بتقديم نفسها لزبائنها أَو للسوق على أَنَّها إلكترونية كاملة، لا تمسها الأيدي؛ مصانع السيارات، الألبسة، الأطعمة، أدوات المطبخ... وغير ذلك الكثير.

لا شكَّ في أنَّ هذا نصر كبير للإنسانيَّة، وإنجاز هائل للإنسان، وإثبات لقدراته الخارقة... ولكن إِلَى أين؟ وما النَّتيجة؟

النَّتيجة المباشرة هنا هي تزايد حجم البطالة تزايداً هائلاً، وهذا في ظني وفي حـدود السـيرورة المنطقيَّـة، وفي حـدود التنبـؤ العلمـي، وفي حـدود الواقـع أيضاً، مما لا يقبل النقاش أَو الجدال على الإطلاق، وقد شهدنا في السنوات الأخير كيف أنَّ الكثير مـن الشـركات الكـبرى راحـت تسـرح الواحـدة منهـا عشـرات الآلاف مـن عمالها بسـبب عـدم الحاجـة لهـم علـى الرَّغْمِ مـن تزايـد القدرات لإنتاجيَّة لهذه الشَّركات.

كشفت بعض الدراسات في عام ٢٠٠٠م عن أنَّ نسبة البطالة ستصير في عام ٢٠٢٠م أكثر من ٨٠٪ من مجموع قوة العمل في العالم كله، أي إنَّ العمالة ستستهلك ٢٠٪ فَقَطْ من القوة العاملة.

وإذا ما نظرنا إِلَى ما تؤدِّي إليه البطالة من مشكلات نفسيَّة واجتماعيَّة وأخلاقيَّة، وسرقات، واعتداءات، وجرائم، وإدمان، ومخدرات... تبعاً لطبيعة المجتمع، أمكننا أن نتخيل التَّغيُّرات القيمة الَّتي يمكن أن تنجم عن هذا التزايد في حجم البطالة. وأمكننا أن نتوقع من هم الذين سيعملون ومن الذين سيكونون في أحضان البطالة. وأمكننا في الوقت ذاته أن نحاول تخيل ما يمكن أن تفكر فيه الدول العظمى لحماية مجتمعاتها على حساب المجتمعات الأُخْرى!!!

خاتمة

لا شكَّ في أنَّنا أمام تغيرات نوعيَّة مختلفة عن كلِّ ما مرت به البشريَّة من تغيرات، والمؤشرات تقول إنَّ التَّغيُّرات آخذة في نهش القيم والمنظومات القيميَّة على صعيد البشريَّة كلها لا على صعيد مجتمع واحدٍ أَو أمَّة واحدة. ومن ثَمَّ فإنَّ التحديات الَّتي تواجهها المجتمعات البشريَّة تحديَّات عصيبة لأنَّها في المستوى الأول والدرجة الأولى نابعة من التطور التقاني الذي يرغبه كل الناس ويحبونه لا عن تحديات أَو تهديدات عدوانيَّة أَو خارجيَّة محددة الهويَّة والغاية.

إنَّ التهديدات الخارجيَّة الَّتي تواجه هذه الأمة أَو تلك، كما هو شأن التهديدات الأمريكيَّة الموجهة ضدَّ المنطقة العربيَّة وغيرها، أمر قابل لمعالجة على المدى القريب أَو البعيد، وأمر يمكن هضمه واستيعابه ومواجهته، أما تهديدات التقانة فهي تهديدات غير ظاهرة، تقدم نفسها، وهي كذلك في حقيقة الأمر، على أنَّها خدمات راقية للإنسان، وتطورات في السيطرة على

الطبيعة لصالح الإنسان، ومكاسب جمَّة وعظمى للبشريَّة... وفوائدها جليَّة وظاهرة يتعذر الجدال فيها، ولذلك فإنَّها تتسرب إِلَى الكينونة البشريَّة تسرب الغذاء في دم الإنسان، ولكِنَّها في الوقت ذاته تلعب دورها في التأثير السلبي الذي سبق الحديث فيه... في تشييء الإنسان رويداً رويداً... في شل طاقاته وقدراته، في تحطيم قيمه... ولذلك صار من الممكن أن نستوعب الآن لماذا نشأت فلسفات تحارب التَّطوُّر العلمي.

كنا نطعن في هذه الفلسفات، ونحاربها، كنا في حقيقة الأمر عاجزين عن فهمها. ولكن على الرَّغْمِ من ذلك لا يجوز أن نحارب تطوُّر التَّقانة، وتطوُّر إنجازاتها، وإن أراد آخرون الظنَّ أنَّنا نميل إِلَى ذلك فهم مخطئون بالتأكيد. لأنَّ محاربة التطور العلمي والتقاني من أجل تلافي آثاره السلبيَّة لا يعدو كونه محاولة لإخفاء ضوء الشمس بالغربال، أَو هو قطع الشجرة من أجل اجتناء الثمرة.

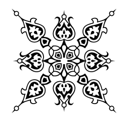
لن نحارب التطور العلمي والتقاني ليس لأنَّنا لا نستطيع ذلك بل لأنَّ التطور العلمي والتقاني أمرٌ ضروريٌّ جدًّا يقدِّم للإنسان الكثير الكثير من الفوائد الَّتي بات من المتعذر الاستغناء عنها من جهة، والَّتي يمكن أن تقود إِلَى فتوحات علميَّة ترتقي بالإنسانيَّة أكثر وأكثر.

فماذا نفعل إذن؟

المطلوب حقيقةً هو التَّفكير الجدِّيُّ في تجاوز الآثار السَّلبيَّة قَدْرَ الإمكان، ولا يمكن أن يتمَّ تجاوز هذه الآثار إلا بعد تشخيصها تشخيصاً

سليماً يضع الإصبع على الحقائق والأسباب والأبعاد والنَّتائج، ويتيح من ثَمَّ للعلماء المختصين القدرة على احتوائها وعلاجها.

قَدْ لا نستطيع درء كلِّ الخطر، ولكننا نستطيع درء معظمه. فهل يجوز بعد ذلك الانتظار، ورمي النَّتائج على كاهل الأقدار؟



الفصل الثالث

قناة الحرة والتغيير القيمي

تخطئ من يظنُّ أنَّ الولايات المتحدة تعوِّل الكثير على قناة الحُرَّة إحداث التغيرات التي تريدها ، لأنَّ الاعتقاد بذلك هو اعتقاد بسذاجة الولايات المتحدة وغبائها وليست الولايات المتحدة كذلك .

إنَّ سياسة غزو العقول التي تمارسها الولايات المتحدة ليست جديدةً، وإنَّما هي جزء أساسيٌّ من سياستها لإحداث التغيرات في أيِّ بقعة من بقاع العالم، والجهود التي كانت مركَّزة على الاتحاد السوفيتي أضيفت اليوم إلى الجهود التي كانت مخصصة للعالم العربي والإسلامي وتفرغت الولايات المتحدة لهذا العالم وحده.

منذ ما قبل افتتاح قناة الْحُرَّة؛ القناة الفضائيَّة الأمريكيَّة النَّاطقة بالعربيَّة، الموجهة إِلَى الجماهير العربيَّة، والأقلام ما فتئت تحذِّر من هذه القناة القادمة، ومن مخاطرها المتوقَّعة، وأهدافها المشبوهة. ومنذ بدأت هذه القناة بثَّها لم تجف أحبار الأقلام المهاجمة لهذه القناة، وما تزال تكرِّر أنَّها قناةٌ مشبوهةُ الأغراض والأهداف، ولذلك ينبغي عدم مشاهدها والحذر من مشاهدتها وعدم التَّورُّط بمتابعتها... وهلم جرًّا من مسلسل هذه التَّحذيرات الَّتي توحي بضرورة النَّفير العام لمواجهة خَطَرٍ داهمٍ يفوق احتلال العراق، أو يفوق الخطر الصهيوني!!

فهل الأمر كذلك فعلاً؟

لعلَّه من الضروريِّ هنا أن نشير، قبل الإجابة على هذا السؤال، إلى مسألة مهمة أثارها مؤتمر اتحاد الكتاب العرب في سوريا أواخر عام ٢٠٠٤م عندما ندَّد بمن يشارك في برامج هذه المحطَّة من المفكرين والأدباء والمبدعين العرب، ودعاهم إلى عدم المشاركة في أعمالها. فخرج علينا الفريق المتأمرك أو من في حكمه بالاحتجاج بأنَّ ذلك لن يقدِّم أَو يؤخِّر في عمل المحطة أَو مشروعها، ولن تتأثَّر المحطَّة بهذه

المقاطعة أبداً، فلماذا لا نشارك فيها ونطرح آراءنا ومواقفنا ونوضح صورتنا؟؟؟

الاحتجاج في صورته منطقيٌّ، ولكن إن كانوا مقتنعين بهذا الكلام، على الرَّغْمِ من منطقيَّته، فإنَّهم سذجٌ بشهادة وخبرة، وإن كانوا يقولون ذلك وهم يعرفون أنَّهُ دجلٌ وتعميةٌ فإنهم ليسوا بسذجٍ غالباً ولكنَّ انتماءهم إلى العروبة يجب أن يكون موضع نظر وبحث بالتَّأكيد، ورُبَّما يرى بعضٌ أنَّ الأمر ليس بحاجةٍ إلى أيِّ نظر... وهل يحتاج الأمر إلى بعد نظر؟؟!!

إنَّ مسألة مقاطعة الحرَّة مماثلةٌ تماماً لمقاطعة البضائع الأمريكيَّة. أعني سأفترض جدلاً، وهذا ما لن يتحقَّق واقعاً، أنَّ قناة الحرَّة ستسمح لهم أن يوضِّحوا ويفضحوا ويعطونهم فوق ذلك آلاف الدُّولارات مكافأة على ذلك، وسأفترض أيضاً أنَّ الحرَّة لن تتأثَّر بمقاطعة المثقَّفين العرب لها وعدم ظهورهم على شاشتها وأنَّها ستظلُّ تعمل وتعمل من دون أيِّ تأثُّر، وهذا أمر مشكوك فيه أيضاً إلى حدٍّ كبير. فهل المقاطعة ترمي إلى تغير هذا الواقع الافتراضي؟ هل ترمي المقاطعة إلى تحجيم دورة المحطَّة وتقليل ضررها؟ هل ترمي المقاطعة إلى محاصرة القناة وإغلاقها؟

من السَّذاجة وأيضاً الحمق أن يظنُّ المرء أنَّنا طالبنا بمقاطعة البضائع الأمريكيَّة كي نغلق المصانع الأمريكيَّة أو نلحق بها الخسائر الفادحة التي تجعل الأمريكان يستغيثون ويُغَيِّرُون مواقفهم من القضيَّة الفلسطينيَّة والقضايا العربيَّة. وكذلك من السَّذاجة والحمق الظَّن أنَّنا نطالب بمقاطعة هذه القناة من أجل إغلاقها. المقاطعة موقفٌ من خصمٍ أَو عدوٍّ أَو ولو نالك أنت شيءٌ من لضرر أَو النقص أَو

الخسارة بسبب هذا الموقف. ومن هذ١ه النقطة أنطلق للإجابة على السُّؤال السَّابق:

هل تشكِّل محطَّة الحرَّة كلَّ هذا الخطر فعلاً؟

يخطئ من يعتقد أنَّ الولايات المتَّحدة تريد إحداث ما تريد إحداثه من تغيير عن طريق قناة الحُرَّة، أو حَتَّى إنَّها تعوّل عليها كثير الأهميَّة، لأنَّ الاعتقاد بذلك هو اعتقاد بسذاجة الولايات المتحدة وغبائها وليست الولايات المتحدة كذلك، ليست الولايات المتَّحدة من الغباء والسَّذاجة بحيث تلعب بأوراقٍ مفضوحةٍ أَو مكشوفةٍ أَو عاريةٍ يُجَرِّدها عريها من القدرة على الفعل أَو التأثير.

ولذلك من كبير الخطأ القول إنَّ محطة الحُرَّة محطَّةٌ مشبوهةٌ، لأنَّ المشبوه هو ما فيه لَبْسٌ أَو عدم وضوح الرُّؤية فيه أَو عدم وضوح المقصد والغاية منه، أمَّا محطة الحُرَّة فهي غير مشبوهةٍ لأنَّها واضحة الرِّسالة والغاية والهدف والهويَّة، وقد أعلنت الولايات المتَّحدة ذلك غير آبهةٍ بأحدٍ؛ أعلنت غير مرَّةٍ أنَّ هذه المحطة موجَّهةٌ للشَّارع العربي بغية إحداث التأثير فيه ودمقرطته وتحسين أخلاقه وطبائعه وعاداته... إنَّها ليست مشبوهةً على الإطلاق، إنَّها مدانةٌ، على الأقل من وجهة نظرنا، ليس لأنَّها أعلنت ما تريد بوضوح بل لأنَّ ما تريده هو ارتكاب جريمةٍ بحقِّ قيمنا وأخلاقنا وعاداتنا وديننا.

هنا تبدأ المشكلة وهنا تنتهي. فهل هذا ما تريده فعلاً الولايات المتحدة من محطة الحُرَّة؟ وهل هذه المحطة هي الأداة الحقيقيَّة لتحقيق ما تريده من تغيير وتحديث وتطوير في قيمنا؟

إنَّ ما أشرنا إليه من غاياتٍ وأهدافٍ هو جزءٌ صميميٌّ مما تريد تحقيقه الولايات المتحدة في العالم العربيِّ والإسلاميِّ، وليس جديداً القول إنَّ هذه

الغايات ليست جديدة كما يظنُّ الكثيرون، وليست مرتبطةً بأحداث الحادي عشر من أيلول، ولا ناجمةً عن مشروع الشَّرق الأوسط الكبير... إنَّها سابقة على ذلك بعشرات السِّنين، فغزو العقول الذي تمارسه الولايات المتحدة ليس جديداً، وإنَّما هو جزءٌ أساسيٌّ من سياستها لإحداث تغييرٍ في أيِّ بقعةٍ من بقاع العالم، وكانت الجهود مركَّزة في الفترة السَّابقة على الاتِّحاد السُّوفيتي خاصَّةً وعلى المعسكر الاشتراكي عامَّة من دون نسيان العالم العربي خاصَّة من مثل هذه الممارسة فقد كان العالم العربيُّ دائماً في بؤبؤ الاهتمام الأمريكي. أما الآن وبعد زوال الاتحاد السُّوفيتي فقد تفرَّغت الولايات المتَّحدة للعالم العربي والإسلامي تفرُّغاً شبه تامٍّ، وجعلته همَّها الأوحد في السَّنوات الأخيرة لأسبابٍ كثيرةٍ.

إذن دمقرطة العرب على الطَّريقة الأمريكيَّة ليست مطلباً جديداً للولايات المتَّحِدة الأمريكيَّة ولا ممارسةً جديدةً لها، وإنَّما هي أمرٌ واقعٌ منذ سنواتٍ غير قليلةٍ، وما محطَّة الحُرَّة إلا حلقة في هذه السِّلسلة، ولكن من دون أن تكون هي ذاتها حاملة رسالة التَّغيير، فمحض الإعلان عن أنَّ هذه المحطَّة محطَّة أمريكيَّة تريد إحداث التَّغيير يعني أنَّها تعلن للشَّارع العربيِّ ضرورة الحذر من هذه المحطَّة، بما سيعني مباشرة الحيطة في التعامل معها وعدم التَّأثُّر بها، وهذه حقيقة نفسيَّة مقرَّرة في علم النفس وعلم الاجتماع.

فلماذا أعلنت الولايات المتَّحِدة تبنيها لهذه المحطَّة إذن؟

ولماذا أعلنت أنَّها هي رسالتها في إحداث التَّغيير والدَّمقرطة؟

لا شكَّ في أنَّ ثَمَّةَ فريقاً مختصاً وكبيراً من العلماء في مختلف الاختصاصات يقف وراء مشروع التَّغيير الذي تسعى الولايات المتَّحِدة إلى

تحقيقه، ولا شكَّ في أنَّ هذا الفريق يعلم هذه الحقائق العلميَّة المقرَّرة، ولذلك لو أرادت الولايات المتَّحِدة الاعتماد كليًّا أَو جزيًّا على محطَّة الحُرَّة في إحداث ما تطمح إليه وتطمع فيه من تغييرٍ لما وَقَعَتْ في خطأ إعلان ما تريده ولجعلت محطَّة الحُرَّة مغفلة الهويَّة حَتَّى تستفيد من آليَّات التَّغيُّر والتَّغيير القيميين ولا تقع في مغبَّة فعلها بفرض ردود أفعال غير مرجوَّةٍ تجعل كلَّ ما تطلبه هذه القناة مرفوضاً، وكل ما تعرضه منبوذاً.

لَقَد أعلنت الولايات المتَّحِدة هويَّة قناة الحُرَّة ورسالتها فيها لتحقيق هذه الرِّسالة بدهاءٍ كبيرٍ هو الذي يقف وراءه العلماء المختصون، وأُبِيِّنُ ذلك على النَّحو التَّالي:

أوَّل النقاط الَّتي ينبغي أن نشير إليها حَتَّى ولو كانت خارج دائرة المطلوب هي اختيار تردُّد القناة الفضائيَّة العراقيَّة واحتلالها كما تمَّ احتلال العراق للبثِّ عليها، علماً أنَّ الخيارات المتاحة كثيرةٌ جدًّا والتَّردُّدات المفتوحة كثيرةٌ جدًّا، ولكن الولايات المتَّحِدة اختارت تردُّد القناة الفضائيَّة العراقيَّة لتحتل الحُرَّة مكانها لتعلن من خلال ذلك إلغاء الوجود الإعلامي العراقي، وربَّما إلغاء الوجود العراقي لصالح المشروع الأمريكي الذي اشتُهرت معالمه وما زالت تفاصيله قيد الإنجاز الذي لا نرجو له أن يتمَّ ولا أن يكتمل.

رُبَّما لم يفكِّر كثيرون في ذلك أَو لم ينتبهوا له، ولكن كان لا بُدَّ من التساؤل:

لماذا اختير هذا التَّردُّد تحديداً من دون مئات أَو آلاف التَّردُّدات المتاحة؟

هل يجوز أن تصل بنا السَّذاجة والغفلة إِلَى حدِّ تصديق أنَّ المصادفة هي الَّتي أدت إِلَى ذلك؟

النقطة الثانية الَّتي تستحقُّ الإشارة إليها هي أنَّ الولايات المتَّحِدة وإن كانت لا تعتمد على هذه القناة اعتماداً مباشراً أَو كليًّا فإنَّها لن تهملها على الإطلاق بل ستحملها رسالتها الَّتي نادت بها ذاتها على مبدأ أَنَّهُ مهما حقَّقت من نتائج فهي مكسبٌ جيِّدٌ، هي تستهدف بهذا المعنى وبالدَّرجة الأولى الشَّباب أَو الشَّرائح الَّتي لديها استعدادٌ للتَّأثر بما تبثُّه هذه القناة، واستعدادٌ للتأمرك بسهولة. وهذا يذكِّرني بنكتةٍ طريفةٍ إذ قال أحدهم: إنَّ الشِّياطين تكون موجودةً بكثرةٍ في الكبريهات والخمارات. فعلَّق صديقه قائلاً: الشَّياطين يا صديقي لا تقف أمام الخمارات والكبريهات لأنَّ من يذهبون إِلَى هذه الأماكن لا ينتظرون الشَّياطين حَتَّى تلعب في عقولهم وتغويهم. وهذا هو حال قناة الْحُرَّة مع من يحملون الاستعداد للتأمرك، فهم قابلون للتَّأمرك بالْحُرَّة ومن دونها.

النقطة الثالثة وهي الأكثر خطورةً، وهي الغاية الحقيقيَّة من إعلان هويَّة الْحُرَّة ورسالتها، هي اللعبة العلميَّة الَّتي تلعبها قناة الْحُرَّة ومن ورائها الإدارة الأمريكيَّة. وحَتَّى ندرك أبعاد هذه اللعبة دعونا ننظر في الحقيقة العلميَّة التَّالية:

يوجد في علم النَّفس ما يسمَّى توجيه الإدراك، وله أغراضٌ ووظائف كثيرة منها ما يستخدم في العلاج النَّفسي، وفي الخداع، والتَّضليل لتمرير أمرٍ ما بعد توجيه الإدراك كلِّه نحو أمرٍ آخر بعيدٍ تماماً عن الأمر المراد تمريره. ومن ذلك مثلاً ما يستخدم في المسابقات الثَّقافيَّة، كأَنَّ يسأل مدير المسابقة

المتسابق قائلاً: نبات المعكرونة، هل هو شجرٌ دائمٌ أم نباتٌ موسميٌّ؟ أو أن يسأله مثلاً: أين ينبت شجر المعكرونة؟

الذي يحدث هنا غالباً هو أنَّ المتسابق ينقاد إدراكه باتِّجاهٍ محدَّدٍ يُحَدِّدُ مَجْرَى تفكيره ومساره فلا يفكِّر إلا في الاختيار بَيْنَ البدائل المطروحة الأكثر قرباً من حقيقة الجواب في ظنِّه، فيحاول تخيُّل النَّبات الذي يمكن أن يحمل ثمار المعكرونة كيف يمكن أن يكون، أَو أين يمكن أن ينبت... وتضيع البدائل الأُخْرى الَّتي يمكن أن تكون هي الصَّواب. وغالباً ما يقع المرء في الفخِّ حَتَّى ولو كان عارفاً للحقيقة، أي حَتَّى لو كان يعرف أنَّ المعكرونة في مثالناً ليست نباتاً على الإطلاق وإنَّما هي مصنوعةٌ صنعاً.

وفي الممارسة الواقعيَّة كثيراً ما يقع النَّاس في فِخَاخٍ من هذا النَّوع من دون أن ينتبهوا لذلك. ومن ذلك على سبيل المثال أنَّ الفلاح يلاحق نباتاً معيَّناً بالتَّعشيب دائماً لأنَّهُ يضرُّ الزَّرع، ويترك النَّباتات غير الضَّارَّة أَو الَّتي لا تؤذي محصوله، ولكنَّهُ يفاجئُ بعد زَمَنٍ قَصِيْرٍ بأنَّ النباتات غير الضَّارة قَدْ تطاولت على نبات المحصول وطغت عليه حَتَّى قضت أَو أوشكت تقضي عليه. ومثل ذلك يحدث مع أيِّ إنسان في أيِّ مهنةٍ وأيٍّ مكان. ومن ذلك مثلاً أيضاً النَّصاب الذي يظلُّ يحذِّرُك من النَّصابين، ويشكو منهم ويَبْكي، ويلعنهم ويسبُّ أعراضهم، ويعطيك الدُّروس في الحرص والحذر منهم... ثُمَّ فجأة وبعد فوات الأوان تكتشف أَنَّهُ قَدْ نَصَبَ عليك وأنت تضحك وتلعب!!

هذه هي الرِّسالة الحقيقيَّة لقناة الْحُرَّة، وهذه هي آليَّة عملها الحقيقيَّة. إنَّها تقول لك احذرني، لا تتأثر بي، أنا أريد أن أُغَيِّرَ هويَّتك،

وقِيَمَكَ، وأخلاقك، وعاداتك... فتأخذ حذرك منها، وتحتاط من التَّأثر بها... وستكون بارعاً إذا لم تشاهدها أصلاً.

ولكن إذا لم تشاهدها فماذا تشاهد، وإذا لم تثق فيها فبماذا تثق؟

لن ننطلق من عدم مشروعيَّة هذا التخيير الإلزاميِّ الذي يشبه التخيير ما بَيْنَ إما تعاطي الحشيشة أَو شمِّ المخدرات. أو يشبه التخيير ما بَيْنَ إما مشاهدة فيلم جنسي أَو الذَّهاب إلى وكر الدعارة... وكأن المرء ملزمٌ بإحدى (الحسنيين) ولا خيار آخر أبداً غير ذلك!! وكأَنَّهُ ليس بإمكان المرء أن لا يدخن الحشيشة ولا أن يشمَّ المخدرات!!...

لن ننطلق من عدم مشروعيَّة هذا التَّخيير وإنَّما سننطلق من الحاجة النَّفسية والمعرفيَّة التي تدفع الإنسان إلى المتابعة فإذا لم يشاهد الحرَّة ماذا يشاهد؟ وإذا لم يثق بالحرَّة بماذا يثق؟

بالبداهة، سيكون المهرب والملجأ إلى القنوات الأُخْرى. ولكن هل القنوات الأُخْرى كلُّها موثوقة؟

هذا هو السُّؤال الذي لم نسأله؟

هناك المئات من القنوات التلفزيونية المتحة، ومنها مئات القنوات العربيَّة تصدح في الفضاء. ولكن ما أقل أقل البريء منها، وحَتَّى البريء بريءٌ في نزاهته في عرض الأخبار، أي عدم انخراطه في اللعبة الأمريكيَّة في صوغ الخبر بما يخدم المصالح الأمريكيَّة على حساب المصالح العربيَّة، أو عدم قبضه مبالغ كبيرة أَو صغيرة من الإدارة الأمريكيَّة لتنفيذ نشرات الأخبار والبرامج كما تصله من هذه الإدارة. أما بقيَّة ساعات البثِّ فهي تسير في ركاب المشروع الأمريكيِّ إمَّا عن قصد أَو من دون أن تدري، لأنَّها لا تعنى إلا بالسِّباق

المجنون على استقطاب المشاهدين أَو سرقتهم من غيرها من القنوات الأخرى حَتَّى تستقطب المعلنين وتربح نقوداً أكثر!!

البرامج الَّتي تبثُّها هذه القنوات كثيرةٌ جدًّا، وكلُّها رسالة أمريكيَّة واضحةٌ صارت إيقاعاً يفرض ذاته على الشَّاشات العربيَّة بوصفه الإعلام النَّاجح القادر على كسب الجمهور حَتَّى صارت الفضائيات النَّزيهة ذاتها تقلِّد هذه البرامج وأساليب البثِّ والعَرْضِ لمنافسة تلك المحطَّات من دون أن تدري أنَّها قدَّمت الكثير من التَّنازلات القيميَّة الَّتي تخدم الثَّقافة الأمريكيَّة على نحو مباشر وغير مباشر، بل يا ليتها تخدم الثقافة الأمريكيَّة فهي على الأقل ثقافة شعبٍ فيها الكثير الكثيرُ من الإيجابيَّات، ولكنَّها تخدم المشروع الأمريكيَّ في هدم القيم النَّبيلة والسَّامية في مجتمعنا وأمَّتنا، ومحو الهويَّة العربيَّة... وأسجل هنا على الأقل نقطتين هما:

تدمير اللغة العربيَّة

النقطة الأولى هي الطَّلاق الكبير الذي حَدَثَ بَيْنَ الفضائيات العربيَّة واللغة العربيَّة، والهجوم إلى العاميَّة هجوماً نَهِماً، والتباهي في الاستهتار بالفصحى والاستخفاف بها، والتفاخر بالأغلاط اللغويَّة، والتَّسابق على اللهجات المحليَّة تسابق الفئران هروباً من قطٍّ جائع!!!

قَدْ يظنُّ بعضهم أنَّ الأمر يسيرٌ ولا يحتاج إِلَى هذا الاحتجاج والتَّحفُّظ. الحقيقة أنَّ الأمر كذلك فعلاً ولكن لولا ما يرتبط به. هل فكَّر أحد هؤلاء في النَّظر بضع سنين إِلَى الأمام، وما سينعكس عن تلاشي الفصحى من حياتنا رويداً رويداً... لنفكِّر في ذلك قليلاً.

سنعود إلى قياسنا السَّابق في المقاطعة، الأمر لا يختلف عنه أبداً؛ فإذا لم يكونوا عارفين بخطورة ما يمكن أن يحدث بل ما سيحدث فهم سذَّجٌ إلى حدِّ الحماقة. وإذا كانوا يعرفون فهم يرغبون، وإذا كانوا يرغبون فهم متآمرون.

إنَّ الهجمة على اللغة العربيَّة قديمةٌ منذ قدم التفكير الاستعماري في الوطن العربيِّ، وقد ساعد التفكير الاستعماري في هذا المشروع نفر من مفكرينا (الأشاوس) الذين هم من أبرز أعلام الفكر العربيِّ والأدب العربيِّ أمثال **طه حسين** أبرز مؤسسي النَّزعة القطرية الفرعونيَّة في مصر. **وقاسم أمين** الذي دعا إلى تسكين أواخر الكلمات، أي العاميَّة إلى حدٍّ ما. **وعبد العزيز فهمي** الذي دعا إلى العاميَّة كتابتها بالحرف اللاتيني، ومثله تماماً ما طالب به **سعيد عقل**، ومثل ما طالب به **قاسم أمين** هو ما طالب به **توفيق الحكيم** في مجمع اللغة العربيَّة بالقاهرة... وغيرهم فير قليلٍ من (أشاوسنا) في ساح النضال الفكري.

لن نتهم أحداً من هؤلاء بشيءٍ أبداً، ولكن لا بدُّ أن نشير إلى أنَّ هذا المشروع؛ مشروع تدمير اللغة العربيَّة بأيِ طريقة من الطُّرق، هو مشروعٌ استعماريٌّ بكلِّ ما تحمل الكلمات من معنى، وهنا أذكر ما حدث بَيْنَ **زكي الأرسوزي ولويس ماسينيون** في أواخر الرُّبع الأول من القرن العشرين إن لم تخني الذَّاكرة. فقد سأل **الأرسوزيُّ** المستشرقَ الفرنسي **ماسينيون** عن سبب وقوف فرنسا إلى جانب تركيا في مسألة اللواء وما وراء اللواء على الرَّغْمِ من مئات السِّنين السَّابقة من العداء وختامها بالحرب العالميَّة الأولى، ووقوف فرنسا ضدَّ سوريا في هذه المسألة على الرَّغْمِ من التَّحالف العربي مع فرنسا

ضدَّ تركيا لسنين غير قليلة. فقال **ماسينيون:** «اضمن لي أن تعتمد سوريا عاميتها لغة وتكتبها بالحرف اللاتيني وأنا أضمن لك عودة كلّ الأراضي السوريَّة».

تركيا استجابت للطلب فأُكرمت وضُمَّت إلى أوروبا وأعطيت من أراضي الجوار وصارت حليفاً للغرب على الرَّغْمِ مما بينهما من العداء والتنافر والحرب.

يدركون أنَّ تدمير اللغة العربيَّة الفصحى وتفتيتها هو تدمير للهويَّة العربيَّة والثَّقافة والقيم والعادات والتَّقاليد... ولذلك يبذلون الغالي والرخيص، ويبذلون كلَّ ما يمكن أن يبذل من أجل تدمير هذه اللغة. فهل تدرك المحطَّات الفضائيَّة العربيَّة ماذا تفعل؟

إن لم تدرك فتلك ولا شكَّ مصيبةٌ، وإن أدركت فما بعد مصيبتنا مصيبة؟

تدمير القيم

الأمر الثَّاني الذي لا بُدَّ من الإشارة إليه هو الأكثر خطورةً بكثيرٍ من الأمر السَّابق لا لأنَّهُ أكثر خطراً منه، بل لأنَّ الأوَّل يحتمل وقوف الجهل وراءه أمَّا هذا فلا يوجد أيُّ احتمالٍ فيه للجهل أَو حسن النيَّة فيه ولا بحالٍ من الأحوال. قد نفتقر إلى الدليل الماديّ الملموس ولكن لا يوجد أدنى شكٍّ في أنَّ هناك سياسة إعلاميَّة واثقة واضحة صريحة تعرف ما تريد من بثِّها وبرامجها، وما نتحدَّث عنه هو شيءٌ آخر غير البرامج المسخيَّة المتكاثرة تكاثراً انشطاريًّا على الشَّاشات العربيَّة، الَّتي هي محلُّ ثقة العربي افتراضاً، وملاذه من الحُرَّة أيضاً.

هذا الأمر هو أغاني العالم العربي المعاصرة النَّاطقة بالعربيَّة، والموسيقى المعاصرة الَّتي تحمل الأغاني النَّاطقة بالعربيَّة. فلا الأغاني العربيَّة عربيَّة، ولا الموسيقى العربيَّة عربية، ولا الأداء العربي عربي.

لَقَد صار الغناء العربيُّ نسخةً طِبْقَ الأصل عن أغاني الدِّيسكو الغربيَّة، وتحوَّل الطَّرب من نشوة الغناء والموسيقى والأداء والكلمة والمعنى إِلَى لذَّة الاستمتاع بالإغراء والتهييج والإثارة. وطالما أنَّ هذه هي المعايير الجديدة للطرب لم يعد للكلام معنى ولا ضرورة ولا للموسيقى دور إلا التَّهييج، ولذلك صار ما يشدُّنا طوال الأغنية هو الجسد العاري أَو شبه العاري للمطربة وراقصاتها، أَو المطرب وراقصاته بحركات الاستعراض والإغراء والإغواء والتَّهييج وإثارة الغرائز الجنسيَّة... فتمرُّ الأغنية كلُّها من دون أن يبقى في أذهاننا منها كلمة أَو عبارة... تبقى آثار التَّهييج والإثارة.

بهذه القيم ستنشأ أجيالنا الجديدة، ومن هذه القيم ستنشأ قيمنا الجديدة، ومن معينها سينشأ المغنون والمغنيات الجدد الذي سيظنون أنَّ هذا هو الفن، وأنَّ من (يخلع) أكثر يكون مطرباً أو مطربةً أكثر، ومن يثير أكثر هو المطرب الأبهر والأيمن والأيسر!!! وهناك ما هو أكثر وأكثر...

يبدو الأمر على أنَّهُ خسارة قليلة إذا نظرنا إليه بمحدوديَّة؛ خسرنا نشوة الطرب. هذا صحيحٌ، ولكن ما الذي أدَّى إلى نشوة الطَّرب؟ أليست الكلمات الراقيَّة؟ الشعر الراقي السَّامي؟ الصُّور الشِّعريَّة البديعة؟.. ضاع الكثير من ذلك... وسيضيع كلُّ شيءٍ.

هل الشِّعر وحده هو الذي سيضيع؟

أبداً ليس الشِّعر وحده، فما يرتبط بالشِّعر ليس موسيقى الشِّعر ولا الصُّور البلاغيَّة وإنَّما القيم التي يحملها، الذَّائقة الجماليَّة التي ينطوي عليها وينبني عليها...

إذن نحن لسنا أمام مرحلة تغير القيم، فقد انقلبت القيم الجماليَّة وتغيَّرت، وخاصَّةً في ميدان الموسيقى والغناء، ففي عالمنا العربي كله لا نجد أكثر من العُشر يحافظون على القيم الجماليَّة في إطار الموسيقى والغناء وحَتَّى الشِّعر والنَّحت والتَّصوير...

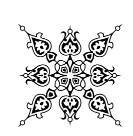
الأمر ليس سهلاً ولا يسيراً مهما بلغ الاعتراض بالمعترضين، لأنَّ الأمر لا يتوقَّف عند انقلاب هذه القيم من أصالة إِلَى تفاهةٍ، من طربٍ إِلَى تهييج وإغراء وإثارة... ولذلك لا عجب إذا علمنا أنَّ كثيراً من شركات إنتاج هذه الأغاني مُمولة من الأمريكان مباشرة أَو غير مباشرة.

إذن قناة الْحُرَّة تمنعنا من التَّأثر بها لنقع في أحضان أهلنا أَو أحضان من نحب، قنواتنا المحترمة تنهل من معين العمِّ سام على نحوٍ مباشرٍ أَو غير مباشر، وتفرض علينا من دون أن ندري مشروعه التَّغييري.

فهل وصلت الرِّسالة؟

ينبغي أن تكون قَدْ وصلت.

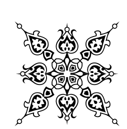
وإلا فلنتابع القناة الْحُرَّة فإنَّها أرحم، لأنَّنا على الأقلِّ محتاطون من خشية التَّأثُّر بها.



ثبت المراجع

- ابن منظور: **لسان العرب** . دار إحياء التراث العربي . بيروت ـ ١٩٩٣م.
- حسين عبد الحميد أحمد رشوان: **تطور النظم الاجتماعية وأثرها في حياة الفرد** . المكتب الجامعي الحديث . الإسكندرية . ١٩٩٣م.
- دينكين ميتشيل: **معجم علم الاجتماع** . ترجمة إحسان محمد الحسن . دار الطليعة . بيروت . ١٩٨٦م.
- صبحي محمد قنوص: **علم دراسة المجتمع** . الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان . مصراتة . ١٩٨٩م.
- عبد العزيز الخطيب: **اتجاهات تغير البنية الاجتماعية في مدينة معضية الشام** ـ رسالة دكتوراه في علم الاجتماع نوقشت في جامعة دمشق عام ٢٠٠١م.
- عدلي أبو طاحون: **في التغير الاجتماعي** . المكتب الجامعي الحديث . الإسكندرية . ١٩٩٧م.
- فادية عمر الجولاني: **التغير الاجتماعي؛ مدخل النظرية الوظيفيَّة لتحليل التغير** . مؤسسة شباب الجامعة . الإسكندرية . ١٩٩٣م.
- كيرت ليوين: **ديناميكية الجماعة والتغير الاجتماعي** . ضمن كتاب: **التغير الاجتماعي** . تحرير إميتاي اتزوني و اتيا اتزوني . ترجمة أحمد حنونة . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٤م.

- مارتين هربرت: **مشكلات الطفولة**. وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٨٠م.
- نبيل السمالوطي: **علم اجتماع التنمية**. دار النهضة العربية. بيروت. ١٩٨١م.
- هيرقليطس: **جدل الحب والحرب**. ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد. دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة. ١٩٨٠م.



صدر من كتب المؤلف

١. **أعاجيب السياسة ئ و الاستقالة و الترميم؛ مأزق الأمم المتحدة في النظام العالمي الجديد** . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.

٢. **أَميرة النَّار والبحار** (شعر) . دار الأَصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.

٣. **أنا صدى الليل** (شعر) . دار الأَصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٥م.

٤. **أنا لست عذري الهوى** (شعر) . دار الأَصالة للطباعة . دمشق .١٩٩٩م.

٥. **أنا وعيناك صديقان** (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.

٦. **أُنشودة الأَحزان** (شعر) . دار الأَصالة للطِّباعة . دمشق . ١٩٩٦م.

٧. **انهيار أُسطورة السَّلام** . الطبعة الأولى: دار الفتح . دمشق . ط١؛ ١٩٩٦م . الطبعة الثانية: دار الفكر الفلسفي . دمشق . ط٢؛ ٢٠٠٣م.

٨. **انهيار الشعر الحر** . الطبعة الأولى: دار الثقافة . دمشق . ١٩٩٤م. الطبعة الثانية: دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٣م.

٩. **انهيار دعاوى الحداثة** . دار الثقافة . دمشق . ط١ . ١٩٩٥م .

١٠. **انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في لقاء الحضارات وصراعها** . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.

١١. **بديع الكسم** . (إعداد وتقديم) . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٩٤م.

١٢. **التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة العلمية والمعلوماتية والتغير القيمي** . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.

١٣. **تفجيرات أيلول وصراح الحضارات؛ الولايات صنعت الحدث لتصنع المستقبل** . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.

١٤. **الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية** . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.

١٥. **الدخيل على المصلحة** (قصص) . ن . م . دمشق . ١٩٩٣م.

١٦. **دفاع عن الفلسفة؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم؟** ـ دار الأصالة للطباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

١٧. **العرب أعداء أنفسهم** ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ٢٠٠٤م.

١٨. **علم الجمال المعلوماتي؛ نحو نظريَّة جديدة** ـ دار الأصالة للطباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

١٩. **غاوي بطالة** (قصص قصيرة) ـ دار الأَصالة للطِّباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٦م.

٢٠. **فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون** ـ دار طلاس ـ دمشق ـ ١٩٩٣م.

٢١. **قراءات في فكر بديع الكسم** (إعداد) ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ١٩٩٨م.

٢٢. **قراءات في فكر عادل العوا** (إعداد) ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ٢٠٠١م.

٢٣. **كيف ستواجه أمريكا العالم ؛ الهيمنة الأمريكية و النظام العالمي الجديد** ـ دار السلام للطباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٢م .

٢٤. **لا تعشقيني** (شعر) ـ دار الأصالة للطباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

٢٥. **مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربويَّة؛ نحو سلوك تربوي عربي جديد** ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ١٩٩٨م.

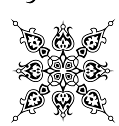
٢٦. **من رسائل أبي حيان التوحيدي** ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ٢٠٠١م.

٢٧. **الموت بدون تعليق** (قصص قصيرة جداً) ـ دار الأصالة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

٢٨. **النظام الاقتصادي العالمي الجديد** : من حرب الأعصاب إلى حرب الاقتصاد ـ دار الفتح ـ دمشق ـ ١٩٩٣م.

٢٩. **نهاية الفلسفة** ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ١٩٩٩م.

٣٠. **هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا** ـ الطبعة الأولى: دار الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م. ط٢: دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ٢٠٠٣م.



فهرس

• • •

• • •

تـطلب

منشورات دار الفكر الفلسفي

من

مكتبة دار طلاس

دمشـــــــق - المرجة - برج دمشق - ط١ - ص. ب: ١٦٠٣٥
هـ الإدارة ٦٦١٨٠١٣ - ١١ ٠٠٩٦٣ - هـ المكتبة: ٢٢٢٩٥٥٨
ومن مندوبيـــــها في المحافظات

مكتبة النُّوري

دمشـــق - مقابل البريد المركزي - ص . ب: ٨٣٤ - ١٧٦
هـ: ٢٣١١١٨٩ - ٢٢١٤٥٣٠ فاكس: ٣٣٣١٦٧٥- ١١- ٠٠٩٦٣

مكتبة نوبل

دمشـــــــق - مقابل فندق الشَّام - هـ: ٢٢٣٦٨٧٣- ١١ ٠٠٩٦٣

مكتبة الحقيقة

اللاذقـيَّة - مقابل مدخل الجامعة - هـ: ٤٢١٤٤٠ - ٤١- ٠٠٩٦٣

مكتبة كردية

اللاذقيَّة - شارع البلدية القديمة - هـ: ٤٧٥٣١٤ -٤١- ٠٠٩٦٣

*   *   *

VISTA TO
SOCIAL AND VALUE'S CHANGE

TECHNOLOGICAL REVOLUTION
AND VALUES CHANGE

BY
Ph.D. EZZAT ASSAYED AHMAD

Published By
DAR AL FEKR AL PHLSAPHY

Damascus. Moaddamet Al Sham B.O.Box 32
Telefax. 00963-11-6244244

Damascus 2005